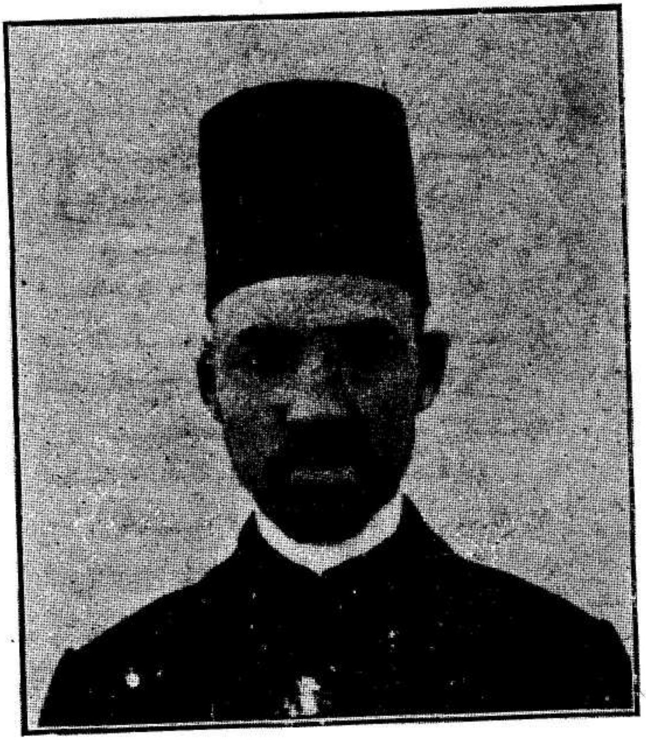
سلسلة
في الأدب الجزائري الحديث
3

الدكتور صالح الخرفي

حمّود رمضان

المؤسسة الوطنية للكتاب

رقم النشر : 1907 / 85
الجزائر 1985



حمود رمضان فى العشرين من عمره
من كتاب (شعراء الجزائر فى العصر الحاضر)
1926

الحُرّيّة

لا تلمني في حبها وهواها
لست اختار ، ما حييت ، سواها

هي عيني ، ومهجتي ، وضميري
ان روحي وما اليه ، فداها

ان عمري ضحية لاراها
كوكبا ساطعا ببرج علاها

فهنائي ، موكل برضاها
وشقائي مسلم لشقاها

ان قلبي في عشقها ، لا يبالي
تنطوي الارض ، ام تخر سماها

رمضان حمود
1928

الشاعر الفقيد

يوم القيت بعض هذه الاضواء عن (حمود رمضان) على طلبة الماجستير والدكتوراه بـ (معهد البحوث والدراسات العربية) فى القاهرة سنة 1969 ، وقدمت اليهم (الشاعر) مقرونا بـ « الوثرة » ، كنت اتتبع النظرات المستفسرة ، والأسئلة المتعافية ، أن يكون هذا الشاعر بهذا الوعي الأصيل للعروبة والاسلام ، وهذه الجراة البالغة فى انتقاد الأوضاع السائدة فى العالم العربي الاسلامي ، وهذه الفكرة المجددة الثائرة فى الابداع الادبي . وفى هذه الفترة المبكرة من مستهل القرن العشرين ، وفى ارجاء المغرب العربي ، وهو يواجه محنة فرنسة ضاربة ، وقطيعة مع العالم العربي مفروضة . وان يكون الشاعر فوق كل ذلك ، ابن العشرين لم يتجاوزها الا قليلا ، حين اختاره الله لجواره سنة 1929 وهو وليد سنة 1906 بمدينة (غارداية) جنوب الجزائر . ولم تخطىء مجلة (الشهاب) الاسبوعي ، حيين نعت (حمود) بفقرة جريحة ، تحت عنوان (الشاعر الفقيد) .

واذا كانت مجلة (الشهاب) قد اعلنت عن فوز (حمود رمضان) فى مسابقة شعرية سنة 1926 ، ونشرت قصيدة الفائز فى المسابقة ، ونسبته الى (الأديب الوطني) ثم ما لبثت ان نعته سنة 1929 بـ (الشاعر الفقيد) . ادركنا ان العمر الحقيقي لانتاج (رمضان) لا يتجاوز الثلاث والأربع سنوات ، فبين البشري بالشاعر الواعد . والنعي للشاعر الفقيد ، نشر (رمضان) سلسلة مقالاته عن (حقيقة الشعر وفوائده) و (الترجمة وأثرها فى الأدب)

فى الشهاب نفسه سنة 1927 ، ثم نشر كتابه (بذور الحياة) سنة 1928 ، وقصته (الفتى) سنة 1929 ، الى جانب القصائد التي نشرت له فى جريدة (وادي ميزاب) وغيرها من الدوريات ، وقد قدم (الفتى) الى قرائه بهذه الابيات المعبرة عن شخصية الشاعر :

جهودك ، يا فخر العروبة ، عبرة
لها رنة ، فى الخافقين ، تقام

ستبقى على مر الدهور منارة
علم علم ، لا يعتريه ظلام

ففي سعيك المبرور ، خدمة امة
عليها خطوب يرتمين ، جسام

حياتك سر ، سوف يظهر كنهها
وفيها لسير الناشئين نظام

اما (بذور الحياة) فقد اهداها :

الى كل اديب يخدم لغة القرآن

الى كل مجدد تحت راية الاسلام

الى كل من يسعى لانقاذ شعبه من انياب الشقاء

الى كل من وضع حجرة تاسيس فى بنيان نهضتنا القومية

اقدم كلماتي هاته كهدية يصحبها الحب والاخلاص .

قدم رمضان (بذور الحياة) فى الجزء الأول ، وقدم (الفتى) فى (المرحلة الأولى) ، ولم يمهله القدر للوفاء بالجزء الثاني للكتاب ، والمرحلة الثانية للقصة .

* * *

من حصيلة الانتاج الشعري والنثري الذي تركه رمضان ، نخرج بملامح بارزة ، تميز شخصية الناقد الشاعر ، فالشاعر

ثائر ، ثائر فى كل جبهاته ومن جميع منطلقاته ، لم يكد يقع طرفه الغض فى كل مظاهر الحياة الا على ما يقذى العين ، ويصك الأذن ، فانفجر حمما وشظايا ، واستهدف بهذا التفجر البركاني عالمه القريب فى الشمال الافريقي ، وعالمه الأوسع فى المشرق العربي ، والبلاد الاسلامية ، فتناولها ، دينيا واجتماعيا ، وفكرا وأدبا وسياسة ، وأوسعها نقدا وتجريحا ، وتحاملا على الحاضر العاثر ، وأفعمها أملا وتيمنا بالمستقبل الزاهر .

فالثورة عند رمضان ، ثورة مقرونة ببعث ، مبشرة بأمل واعد ، وغد موعود . ليست ثورة معولية فقط ، ولكنها ثورة اعلاء وعطاء ، تقرن الكلمة الغاضبة ، بالفقرة الموحية ، الزفرة الشجية ، بالبسمة المورقة ، كذلك كان رمضان فى كل انفاسه المبدعة ، شعر ونثرا . وقفات متأملة ، او خواطر عابرة . يصل الكلمة الرشيدة فى المبدع ، بالقلب الواعي فى المتلقى ، فيتولد الأمل ، وتورق الحياة ، وكذلك قدم كتابه (بذور الحياة) :

« ان الكلمة الرشيدة ، اذا صدرت من قلب نقي طاهر ، وبذرت فى قلب يشابهه ، تولد منها غصن الأمل والحياة » .

وفقرات رمضان ، تتأرجح دوما بين معادلتين متجاذبتين سلبا وايجابا ، والفقرة لا تقع في النهاية الا على الجانب الايجابي ، مهما تلبدت سحب الواقع الجاثم ، فالشاعر يستوحي المستقبل ، بقدر ما يتجاوز عثرة الواقع المؤلم ، فى وطنه الجزائر ، في مغربه العربي ، فى عالمه العربي الاسلامي .

يقول عن (الشرق والشرقيين) سنة 1928 :

« لست من المتشائمين على الشرق ابدا ، ولكني اقول بملء فمي ، ما دامت اقواله اقوى واضخم من افعاله ، فحاضره أحسن من مستقبله » .

« ان سيرة الشرق الحاضرة ، مصيرها انفكاك ممالكها ، بعضها عن بعض ، فى اقرب وقت ، ان دام فى حالته الحاضرة . لان الاسلام

الذي هو مصدر كل وحدة ورابطة ، صار يتضاءل كل يوم ، واذا ضعف السبب ، ضعف المسبب » .

« ان كلمة ، الشرق ، لا تطلقها بعض الشعوب الشرقية على اخواتها الا في الشدة . واما في الرخاء ، فترى نفسها هي الشرق ، والشرق هي » .

فهل تجد شرق 1985 بعيدا عن شرق رمضان سنة 1928 . قبل ما يقرب من ستين عاما ؟!

ويستشرف (رمضان) ملامح (الجزائر الفتاة) سنة 1928

« اذا صح ان الامم لا تتكون الا من طينة تاريخها الغابر ، وأن الأمة التي لا تاريخ لها ، لا تنهض الا باندماجها في غيرها ، فان للجزائر العزيزة تاريخا ماجدا ، وماضيا خطيرا ، يذكر بكل اجلال وتعظيم » .

« الجزائر ، تربة صالحة للنبوغ والحرية ، لغيرة ابنائها وحرارتهم النادرة ، فلو انصف الدهر ، ورحل الجهل ، لرأى العالم منهم عجائب تذهل الألباب » .

فهل الجزائر ، وليدة ثورة نوفمبر الخالدة سنة 1954 بعيدة عن (الجزائر الفتاة) عند رمضان سنة 1928 ، قبل ما يزيد على خمسين سنة .

* * *

وثورة رمضان على (شوقي) امير الشعراء ، وجه آخر من الوجوه المميزة لهذه العبقرية الصاعدة من جنوب الجزائر ، فهو يربأ بك ان تسيء الظن بمكانة شوقي في نفسه ، وهو المبايع له بامارة الشعر مع الوفود التي بايعت مع حافظ ابراهيم ، فليست بينه ، وهو قعيد المرض ، ومهيض الجناح ، في اعماق الصحراء الجزائرية ، وبين شوقي في (كرمة ابن هاني) على ضفاف النيل ،

او على باب اسماعيل ، هذا الذي بين شوقي ، والعقاد وجماعة الديوان ، وما بين شوقي وطه حسين ، من هذه النقائض المعاصرة ، وليدة الابداع المتنافس ، والريادة المتزاحمة ، والعاطفة الجامحة .

انما (شوقي) عند (رمضان) ظاهرة أدبية ، اصبحت ملك قرائه والمعجب بنبه ، ومراجعة هذه الظاهرة من اوكد الواجبات فى سنة التطور ، ولذا لم يعد شوقي ان يكون بالنسبة للناقد الجزائري مدخلا الى رايه فى الشعر المعاصر ، وقناعته فى حتمية التجديد :

« لم اقصد بنقدي التنقيص من سمعة الشاعر الكبير ، فقدره اعلى منزلة من أن تتناوله يد المتطاول .

« واذا كان الكلام على شوقي واضرابه ، فلان القصد منه انارة الطريق الذي يجب ان يسلكه ابناء الجزائر الادباء ، لأن الشرق فى غنى عن أقوالنا فى هاته الايام كما يظهر » .

« عدم اعترافي بنهضة الشرق الحديثة ، ما دامت لم تؤسس على مبادىء عظيمة ، وحياة جديدة ، وادب قومي» .

« نعم ان شوقي احيا الشعر العربي بعد موت ، وفتح الباب الذي اغلقته السنون الطوال ، ولكنه مع ذلك كله ، لم يات بشيء جديد لم يعرف من قبل ، او سن طريقة ابتكرها من عنده ، وخاصة به دون غيره ، او اخترع أسلوبا يلائم العصر الحاضر » .

ويلخص (رمضان) رايه فى التجديد فى فقرة ذيل بها دراسته المطولة فى (حقيقة الشعر وفوائده) سنة 1927 ، وختم بها رحلته المطوحة فى اعماق الشعر العربي ، المحومة على رحابه المعاصرة ، شأن معاصره ، (أبي القاسم الشابي) فى محاضرته بالخلدونية سنة 1929 (الخيال الشعري عند العرب) . يختم (رمضان) الرحلة المستكشفة الرائدة ، الناقدة ، بهذا النداء :

« فيا أيها الأدباء الاحرار ، انبذوا التكلف والتنطع فى اللغة ، وافرغوا المعنى الجميل في اللفظ الجميل ، واخضعوا لصوت

الضمير والواجب ، وصفوا انفسكم من الانتقام قبل الانتقاد ، ولا تقيدوا كتاباتكم بطريقة احد ، مهما كان شانـه وقـدره فى الادب ، ومهما كان بيانه الساحر ، ولكن أملي أن تدور رحي اقلامكم حول محور واحد ، وتتسابق خيل أفكاركم نحو غاية واحدة وهي :

« سعادة الشرق باي طريق كان !!! »

***

وريادة اخرى لـ (رمضان) فى هذه القصة التـي نشرهـا فى العشرينات بعنوان (الفتى) ولم تمهله المنية لاستكمال نصفها الثاني هيكليا ، واستكمال ادواتها فنيا ، ونضج صورها خياليا ، فهو بذلك أول من جرب كتابة القصة في الادب الجزائري الحديث ؛ لا نتحدث عن نجاح التجربة أو فشلها ، وانما الحـديث عن التوقيت الذي يعتبر مبكرا رائدا ، فان الثلاثينات والأربعينات هي التي ستطالعنا ببدايات القصة الجزائرية الحديثة في كل من (محمد العابد الجلالي) رشيد) و (أحمد رضا حوحو) شهيد الثورة الجزائرية .

وقصة (الفتى) ترجمة شخصية للشاعر ، طفولته ، دراسته ، تنقله بين (غارداية) مسقط راسه في الجنوب ، ومتجر والده في (غليزان) في الشمال ، ثم التحاقه بتونس لاستكمال الدراسة في مدارس ومعاهد حرمت منها الجزائر بفعل التضييق الاستعماري على التعليم العربي . ثم اضطرار الطائر المهاجر ، للعودة الى وطنه ، وحرمانه من مواصلة الرحلة العلمية في الخضراء ، تحت وطأة المرض الذي أودى بحياته .

والأحداث في القصة ، والسرد ، والحوار ، كلها سيرة حياة ، نابضة بآراء الكاتب ، ودعوته الاصلاحية في التعليم الديني ، في المسجد ، في الوعظ والارشاد ، في العلوم الحديثة ، في الفلاحة ، في التجارة ، في الصناعة ، ممزوجة تلك الآراء والأفكار بمسحة من غربة الريادة ، ووحدة العبقرية .

وبالرغم من ان الأسماء والمسميات في القصة ، ومسارح الأحداث ، ومواقع الذكريات ، كلها تشير بأفصح لسان الى بطل القصة ، والدائرين حوله على خشبة المسرح ، فقد حرص (رمضان) ان يعمم ، ويموه ، ويبعد الشبهة ، ويدعى التحويم من غيره وقوع ، ولكنه واقع لا محالة :

« القصة عامة ، لم اقصد بها شخصا معينا ، ولا وطنا خاصا ، وكل ما ورد فيها من الاعلام هو مجرد تمثيل وتنسيق ، وان كانت مصبوغة بلون بلادي ، ومرقد اجدادي ، وان صاحبها عاشها حقيقة ، ولم يزل يذب عن حقوق امته . والعبرة بحوادثها لا غير .

هذا ما اوحاه الي ضميري ، وهذا ما أرجو ان يفهم ، وعلى الله قصد السبيل » .

لكن (رمضان) في قصته ، شأنه في حياته ، رضى من الغنيمة بالاياب ، بل بما هو اقسى وأمر . وتلك غربة العبقرية ، وجنون الاستشراف ، وتخطي الواقع المنظور ، ومعانقة اللامنظور في أعين البسطاء ، رضى من الغنيمة بالاياب في حساب المفلسين روحا وعقلا ، واستسلم للصمت في مقياس الزمن العابر ، ولكنه المثرى في خزانة التاريخ ، المتجاوب الأصداء في المدى اللامحدود .

فهل هو وجه آخر من اوجه التشابه مع معاصره (الشابي) ، الغربة والاغتراب ، الايواء الى الغاب والوديان والكهوف ، الى الصمت الموحى ، والوجوم الناطق :

« على أنه ، لم تكن الخيبة وحدها نصيبه ، بل قد رموت بالطيش والتهور ، وطلب المستحيل ، والوقاحة والتخليط ، وآخر سهم في الكنانة قولهم ، انه يطلب الشهرة لا غير ، وهنا ، راى العزلة اقوم ، والسكوت اسلم » .

ومن بين المقاطع الشعرية الكثيرة التي وشح بها قصته ، وهي أبيات من ابداعه ووحيه ، قصيدة (لو كنت) التي افرغ مأساته ،

وجسم شقاء العقل فى نعيم المعرفـة ، وتفجـر القلب فى لهيب الاحسـاس .

فلو المعـارف يشـقى والبـؤس طي ردائـه
ان التعاسـة ، سـم ممزوجـة بدمـائه
والعقـل ، يقتـل هما من يهتـدي بضيـائه
كـم عـالم ، مات غمـا بصبـره ووفـائـه
او عـاش وهـو كئيـب وفـاقد لـرجائـه

و (رمضان) جمع المحبسين معا ، ومات رهينهما ، كـآبة الاقامة ، وحسـرة الرحيـل المبكر ، وتلك ارادة الله ، ولا راد لقضائه .

***

وملاحظة هامشية ، لقد اجريت تقديما وتأخيـرا في اسـم شاعرنا الفقيد ، فقد اشتهر بـ (رمضان حمود) وهو نفسهاستعمل هذه الصيغة في مقالاته وقصائده ومؤلفاته ، جريا على الطريقة الفرنسية في تقديم اللقب على الاسم ، والأسلوب العربي يقتضى العكس وانا بدوري استعملت الصيغة ذاتها ، غير ان الشاعر يقدم لنا نفسه فى ترجمة حياته فى الجزء الاول مـن كتـاب (شعـراء الجزائر في العصر الحاضر) بقوله : « اسمي حمـود ، وابي سليمان ، ولقبي رمضان » .

فهو (حمود رمضان) لا (رمضان حمود) .

***

بقيت كلمة في حق (رمضان) علينا ، وفي بعض واجبنا نحوه ، نحن أبناء (الجزائر الفتاة) التي تغنى بها الفقيد في العشرينات ، نحن أبناء الحرية التي ناجاها الراحل سنة 1928 بقوله :

ان عمـري ، ضحيـة لأراهـا
كوكبـا ساطعـا ببرج عـلاهـا

ان قلبي في عشقها ، لا يبالي
تنطوي الأرض ، ام تخر سماها

(الشاعر الفقيد) الذي نعاه (الشهاب) بقوله :

« نعت الينا رصيفتنا (الاصلاح) الغراء ، نبا وفاة الشاعر النابغة ، والأديب الفني ، والمصلح الوطني ، فوقع ذلك النبا علينا الوقع المؤلم ، حتى كانما بتر عضو من جسدنا ، واظلم امامنا قسم عظيم من الجزائر ، كنا نعلق انارته على جده ، وعمله ، واخلاصه ، واعظم المصائب ما اثر في مستقبل الاوطان ، وافدح الزوايا ما اضعف قوة الامم » .

(الشاعر النابغة) الذي أدرجه خير الدين الزركلي في موسوعته (الاعلام) . بعض واجبنا نحوه ، ان نبعثه من جديد ، في نشر جديد لمؤلفاته كاملة : (بذور الحياة) (الفتى) ما جمع له من قصائد . مؤلفاته كاملة ، تحمل اسمه كاملا ، حتى تتاح الفرصة للدارسين والقراء ، ان يلتقوا بـ (حمود رمضان) لقاء مباشرا من غير وساطة .

ولعله من اضعف الايمان فى هذا الواجب ، ان يرفع اسم الشاعر الفقيد (حمود رمضان) على واجهة مؤسسة تربوية ، او مدرج جامعي ، وتدرج نصوصه فى المناهج التربوية ، وتحمل اسمه لافتة على شارع جانبي ، فى وطنه الجزائر المعجزة ، وبين ابناء وطنه الجزائر ، الذين بشر بهم قبل ستين عاما :

« لو انصف الدهر ، ورحل الجهل ، لراى العالم منهم عجائب تذهل الالباب » .

رحمك الله (حمود بن سليمان رمضان) في الخالدين .

الدكتور صالح الخرفي
رمضان 1405 هـ
مايو ــ آيار 1985 م
المنزه السادس . تونس

. العشرينات بين المشرق والمغرب .

شهدت العشرينات ، مشرقا ومغربا ، هزات عنيفة ، فجرها التصادم مـع المد الاستعماري ، وتغلغله فى العالم العـربي الاسلامي . وشملت هذه الهزات كل جبهة من جبهات المقاومة الوطنية ، ثورة مسلحة ، أو انتفاضة سياسية أو دعوة اصلاحية. أو تفجرا فكريا أدبيا . يجيل النظر في كـل ما حوله ويراجـع المسلمات ، ويتجاوز الرتابة ، وينشد الثورة على السكون .

ان بذور هذه الهزات وبواعثها سبقت العشرينات ، وتتائجها وذيولها انسحبت على العقود اللاحقة، ولكن تبدو لي العشرينات هي ذروة التصعيد البركاني ، وفورة الغليان بمختلف وجوهه ، وقمة المراجعة الذاتية لكل مظاهر الحياة فى الوطن العربي .

ان الموروث ــ فكرا كان أو أدبا ــ يتجذر في النفوس ، ويتقدس في الأذهان . ويوصد كل أبواب الاجتهاد ، في حالات الضعف . ومراحل الدفاع السلبي المغلوب على أمره ، لأن الموروث يصبح المهرب والعزاء فى وجه الحياة العاثرة .

ولكن عندما تتحدث النفس بالثورة ، وتتجاوب الجبهات فى أصداء ثورية متناغمة ، عنفا مدويا فى وضح النهار ، أو تنظيما

سريا في جنح الظلام ، منبر خطابة في محفل سياسي أو هدير جموع فى ساحات منتفضة ، صرير قـلم وراء أبيات مجنحة أو أزيز مطبعة وراء حروف هادفة .

عندها تنفجر الجرأة على المراجعة الحاسمة ، وتتقاطر نقاط الاستفهام والتعجب والانكار ، وتتلهف الأفكار لـكل جديد ومستحد فى (أل) التعريفية فى كل مظاهر التعبير عن الذات المضطهدة ، والحياة القاتمة .

ما هي الحياة ؟! ماهي الحرية ؟! ما هو الأدب ؟! ما هو الشعر؟! هي وغيرها ، أسئلة معهودة ، ومجترة على مر العصور، ومبتذلة، لكنها فى المنعرجات التاريخية الحاسمة ، تحمل معها لقاح الجدة ، والابداع ، وتدفق الحياة ، وتطور الانسان .

واذا صح أن الثورات الوطنية ، لا تعدم أدبا رائدا مهـد لها ، وبشر بها ، وهيأ الأرضية الروحية ، والمعنوية لبطولاتها . فليس من الخطا فى شيء القول بأن هذه الثورات تهيء الأسباب لقلقلة الظواهر الموروثة الآسنة ، وصياغتها صياغة جـديدة ، بما فى ذلك الأدب الذي ينتقل من دور الريادة لثورة سياسية ، الى ريادة ثورة داخلية ذاتية ، تشكله تشكيلا منسجما مع العهد الجديد ومع الأذهان المتفتحة لتقبل التغيير .

ان الأحداث الوطنية التي شهدتها العشرينات فى المغرب العربي، والتي طرحت قضية (الحرية) بمفهومها السياسي ، هي ذاتها التي ألهبت (الحرية) بمفهوم الابداع .

يقول (النيال) فى تقديمه لكتاب (زين العابدين السنوسي) « الأدب التونسي فى القــرن الرابع عشر » والكتاب وليـــد العشرينات (1) :

« أليس نبوغ الواحد من هؤلاء لا ينشأ الا بانتصار خلق الحرية فيه على ناحية من نواحي طباعه المكتسبة بالوراثةوالتقليد؟

هكذا الشاعر أو الكاتب ينبغ بالتفوق على مستوى الكاتبين والشعراء بانطلاقه من عبودية كل مألوف ، وعدم مبالاته من كل مكروه ومحذور » .

ان هذا الموقف المتمرد ، المتحدي ، غذته وفجرته سلسلة من الأحداث الوطنية بلغت ذروتها فى العشرينات والثلاثينات . فالثورة كل لا يتجزأ . والعبقرية هنا ليست فردية ، بقدر ما هي عبقرية مجتمع هيــأ الأسباب لكهــربة الاحساس المرهف في السياسي ، والمصلح ، والأديب ، والشاعر .

في المشرق العربي :

ولم يغفل المؤرخون للنهضة الأدبية الحديثة ، مشرقا ومغربا ، والمسهمون في بنائها ، هذه العلاقة التجاذبية بين الثورة السياسية والثورة الأدبية فالعقاد في كتابه (شعراء مصر) يقول (2) :

---

1 – مقدمة (السنوسي) لكتابه مؤرخة فى 10 ذي القعدة 1945 هـ ، وصدر الكتاب فى نشرة ثانية عن (الدار التونسية للنشر) فى جزاين ، الجزء الاول بتاريخ ماي 1979 والجزء الثاني فى جانفي 1980 ، بعد اضافات عليها .

أما (النيال) فقد عرفه السنوسي بـ (المفكر الأديب السيد محمد البهلي النيال) .

2 – شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضي . عباس محمود العقاد . مكتبة النهضة المصرية . ط 1 / 1930 ، ط 2 / 1950 .

« ظهرت طلائع النهضة الشعرية فى مصر حين ظهرت فيها طلائع الثورة التي عرفت فيما بعد باسم (الثورة العرابية) (3) ولم تسبقها نهضة مذكورة بعد الركود الذي أصاب الشعر العربي كله فى أعقاب الدولة العباسية •

ومغزاها أن البواعث الحقيقية لصوغ الشعر ، قد ظهرت بعد أن كانت مفقودة أو محجوبة ، وأن الأذواق الحية ، قد أخذت تحل محل القواعد الدراسية ، ولا يحدث ذلك الابعد أن تحدث فى الأمة أمور كثيرة متشابكة مختلفة تتناول عناصر الحياة فيها من جميع النواحي » •

(الثورة العرابية) مضرب مثل ، وشرارة أولى ، لسلسلة متداخلة من الثورات ، والبطولات العربية الحديثة ، عرفتها العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن ، وانتظمت كل جبهات الوطن العربي فتركتها معالم بارزة ، ومواقع خالدة فى مسيرة النهضة العربية الحديثة ، مرورا بـ (الثورة العربية 1916) (4) و (مشانق أحرار العرب 1916) (5) و (ثورة 1919) (6) و (ميسلون

---

3 ـ احمد عرابي باشا (1841 ـ 1911 م) ونشبت الثورة العرابية سنة 1881 ووقعت معركة التل الكبير فى سنة 1882 التي كانت نهاية الثورة ، نفي بعدها عرابي الى جزيرة سيلان ومكث بها 19 عاما ، وعاد الى القاهرة، وتوفى بها في أيام الخديوي عباس أنظر (الاعلام) للزركلي • ج • صفحة 161 / 162 •

4 ـ قاد هذه الانتفاضة زعيم نهضة مصر السياسية سعد زغلول (1857 ـ 1927) تراس الوفد المصري للمطالبة بالاستقلال سنة 1919 ، فنفاه الانجليز الى مالطة • انفرد بقيادة الحركة الوطنية فى مصر بين سنتي (1919 ـ 1927) ، انظر (الاعلام) ، ج 3 • صفحة 131 •

5 ـ قادها فى مكة الملك حسين بن علي (1854 ـ 1931) واطلق رصاصتها الاولى فى شعبان 1334 ـ 1916 •

6 ـ اقام هذه المشانق جمال باشا بعد محاكمات (عالية) المشهورة وشنق فيها احرار العرب سنة 1916 ، وعدد الذين شنقوا يزيد على ثلاثين فى كل من دمشق وبيروت ، انظر المظالم فى سوريا ، فائز الغصين 1918 •

1920) (7) و (الغوطـة 1925) (8) والثورة العراقيـة على الانجليز • والرواية لم تتم فصولا •

هذه الثورات ــ تمثيلا لا حصرا ــ كانت المنـاخ الطبيعي للانتفاضة الأدبية الحديثة فى العالم العربي ، وان النهايات القاتمة التي منيت بها كل هذه الثورات ، هي التي فجرت البدايـات المشرقة لذلك الأدب •

تلك جولات عرفتها ساحات المشرق العربي ، ولكن كان من بين أبطالهـا وشهدائها أبنـاء العروبة والاسلام من المغـرب العربي (9) •

---

7 ــ قاد معركة (ميسلون) الفاصلة يوسف العظمة (1884 ــ 1920) وفيها استشهد ، وكان آنذاك وزيرا للحربية فى حكومة الملك فيصل ، وبعد معركة (ميسلون) دخل الجيش الفرنسي دمشق بقيادة الجنرال (غورو) وكانت معركة ميسلون فى 7 ذي القعدة الموافق لـ 24 تموز 1920 .

8 ــ من بين قواد هذه الثورة ، وشهدائها الأمير عز الدين الجزائري من أحفاد الأمير عبد القادر .

9 ــ من بين شهداء العرب سنة 1916 الأمير عمر الجزائري نجل الأمير عبد القادر، وأركان حرب سليم الجزائري ، من أبرز القواد فى الجيش العثماني ، وأصله من بلاد القبائل فى الجزائر ، واتهم المصلح الجزائري الطيب العقبي ، بالثورة العربية سنة 1916 وكان اذ ذاك فى الحجاز ، فاعتقله الأتراك ، وبعد اطلاق سراحه عاد الى مكة ، وأشرف على المطبعة الأميرية ، وتولى رئاسة تحرير جريدة (القبلة) بعد محب الدين الخطيب . وكان ذلك في عهد الشريف حسين .

ومن الذين لم يسلموا من بطش جمال باشا من أبناء المغرب العربي محمد الخضر حسين (1873 ــ 1958) اذ سجن فى دمشق بأمر من جمال سنة 1916 .

ومن بين الشخصيات البارزة التي كان لها نشاط فى النهضة العربية الحديثة فى هذه الفترة ، الشيخ طاهر الجزائري (1852 ــ 1920) (الذي كان له الفضل كل الفضل ، فى كل تقدم ورقي أصابه مسلموا سورية) كما يقول عنه محب الدين الخطيب ، ويضيف : (من الشيخ طاهر الجزائري عرفت عروبتي واسلامي) .

ومن بينهم (سليمان الباروني) الطرابلسي و (أبو اسحاق ابراهيم طفيش) الجزائري و (تقي الدين الهلالي) المغربي .

وفي المغرب العربي :

كانت أقطار المغرب العربي ، أو الشمال الافريقي ، كما عرف فى ذلك العهد منذ بدايات القرن العشرين ، مسرحا لاحداث دامية ، وثورات جامحة وتصادم مستمر مع الاستعمار ، جاثما أو غازيا ، وكانت الحرب العالمية الأولى ، وقد دفع فيها أبناء الوطن المحتل ، ضريبة الدم والروح ، مظلة لكل ثأر مهدور ودم مطلول ، وجاء (مؤتمر السلام) بمبادىء (ولسون) (10) فألهب المشاعر ورص الصفوف ، وحرك الوفود والمطالب ، فاذا الأرض تميد تحت أقدام الغزاة .

ولو أردنا أن نرسم خارطة لاقطار المغرب العربي فى هذه الفترة، ذات بقع ملتهبة ، لجاءت حمراء قانية ، يكاد يتلاشى فيها أي لون آخر غير لون الدم والمشاعر المتأججة .

ولو أردنا مرة أخرى ، أن نسمي ــ استشهادا لا استقصاء ــ لجاءت ثورة (عين التركي) سنة 1901 وثورة (عين بسام) سنة 1906 في الجزائر،ثم برزت الملحمة البطولية الليبية (11) في وجه الغزو الايطالي فى صدراة هذه الأحداث تلك الملحمة التي هزت العالم الاسلامي ، واستنفرت أحراره ، وفضحت أغواره طيلة عشرين عاما ، وكان وقعها على أبناء المغرب العربي ، وهو تحت

---

10 ـ من مظاهر ذلك أن جريدة (الأمة) اللسان الرسمي لـ (نجم افريقيا الشمالية) كتبت : (اننا نقولها بصراحة ، اننا وطنيون وباسم مبدأ تقرير المصير للشعوب) كما عبر عنه ولسون نطالب بالحرية والاستقلال لوطننا ، انظر (الحركة الوطنية الجزائرية) أبو القاسم سعد الله . سفحة 324 ، دار الآداب . بيروت 1969 .

11 ـ كانت الغزوة فى سنة 1911 .

نير الاستعمار الفرنسي أشد ، يسترقون الالتحاق بجبهاتها ، فان خانتهم الحيلة ، مدوها بالمال والسلاح ، والملحمة فى كل منعرجاتها كرا أو فرا ، حربا أو صلحا ، معركة فى الساحة ، أو خبـرا فى الصحيفة ، وثبة على صهوات الخيول ، أو تدليا في المشانق • هي في كل ذلك بؤرة التهاب وطني عارم ، كانت له آثاره في مختلف مظاهر التعبير والابداع •

و(الأحداث الدامية في تونس 1921) (12) (ثورة الأمير عبد المالك فىوجه الاستعمار الفرنسي فى المغرب 1915 — 1925) (13) (ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي فى الريف 1920 — 1926) (14)•

ولو التفتنا الى الساحة من زاوية التململ السياسي لوجدناها هي الأخرى فى فترة العشرينات بالتحديد ، حافلة بالفعل ورد الفعل بين المستعمر والمواطن ، زاخرة بالانتفاضات الحزبية ، والتكتلات الوطنية ، والتصادم المتصاعد مع قوات الاحتلال ، تحدوه تطلعات تحررية ، وتتحداه قوانين استثنائية ، وتفجره اجراءات قمعية •

---

12 ـ معركة (الجلاز) سنة 1911 ومقاطعة (الترام) سنة 1912 .

13 ـ الأمير عبد المالك الجزائري بن الأمير عبد القادر ، كان رئيسا للشرطة فى طنجة وأعلن الحرب ضد فرنسا فى مارس 1915 ، وانضـم اليه الأمير عبد الكريم الخطابي ، وتحالفت فرنسا مع اسبانيا ضد الأميرين فلقي عبد المالك مصرعه فى معركة فى أوت 1924 ، ونفي الأمير عبد الكريم سنة 1926 .

انظر الفصل الخاص بالأمير عبد المالك فى (الحركة الوطنية الجزائرية) صفحة 257 .

14 ـ انظر (سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها) تأليف رشدي الصالح ملحس ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة 1343 وانظر (بطل الريف الأمير عبد الكريم) عمر ابو النصر ، المكتبة الاهلية ، المطبعة الوطنية ، بيروت 1353 هـ ـ 1934 م .

(حركة الأمير خالد الجزائري 1919 — 1925) (15) (الحزب الحر الدستوري التونسي 1920) (16) قيام (نجم شمال افريقيا فى باريس 1926) (17) ارهاصات الحركة الاصلاحية تحت شعار العروبة والاسلام والتي حملت فيما بعد اسم (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931) (18) (الحركة السلفية فى المغرب) فى أواسط العشرينات (19) .

وقائمة القوانين الزجرية والقمعية من طرف المستعمر ، لم تعدم هي الأخرى نفسا متواصلا متصاعدا ، يزيد المعترك احتداما . ويجعل المنطقة شظايا متطايرة وبطولات متلاحقة .

---

15 — برز الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر كزعيم للحركة الاصلاحية السياسية فى الجزائر سنة 1919 بعد نجاحه في الانتخابات ، وأصدر جريدة (الاقدام) وكان لحزبه الاصلاحي برنامج من عشر نقاط هي فى مجملها دعوة للمساواة بين الجزائريين والفرنسيين ، مع المحافظة على الشخصية الوطنية الجزائرية ، وقد أبعدت السلطات الاستعمارية الأمير خالد الى الاسكندرية سنة 1924 ، انظر (الحركة الوطنية الجزائرية) ، صفحة 410 .

16 — انظر : الشعر التونسي المعاصر ، محمد صالح الجابري ، صفحة 103 ، الشركة التونسية للتوزيع 1974 .

17 — انشيء (نجم افريقيا الشمالية) فى باريس فى مارس 1926 من جماعة اهالي افريقيا الشمالية ، وأعلن عن الأمير خالد رئيسا شرفيا له . انظر (الحركة الوطنية) ، صفحة 424 .

18 — تأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) سنة 1931 ، ولكن محاولات تأسيسها بدأت من أوائل العشرينات وبالتحديد سنة 1924 حيث يذكر الشيخ الابراهيمي بأنه وضع (القانون الاساسي) لها فى هذه السنة بطلب من الشيخ عبد الحميد بن باديس .
انظر (شعر المقاومة الجزائرية) صالح خرفي ، صفحة 136 ش . و . ن . ت . الجزائر .

19 — انظر (علال الفاسي رائد الحركة الوطنية المغربية) محمد العلمي ، صفحة 49 ، مطبعة الرسالة ، الرباط 1980 .

و(قانون الأهالي) (20) الذي يمثل شريعة الغاب ، جدد العمل به فى الجزائر سنة 1912 ، وفى نفس السنة صدر (قانون الخدمة العسكرية الاجبارية) (21) للجزائريين فى الجيش الفرنسي ، وفيها اعتقل الزعماء الوطنيون فى تونس بعد الأحداث الدامية (22) .

وتحت كابوس الحرب ، ووطأة الحكم العسكري ، رفعت الاقلام ، وجفت الصحف ، ولم تستعد الصحافة أنفاسها الا فى أوائل العشرينات (23) ، وجاء (الظهير البربري) سنة 1930 (24) حشرجة استعمارية يائسة لضرب الوحدة الوطنية فى المغرب .

ومع حلول سنة 1930 (25) توالت احتفالات الجيش الفرنسي بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر ، والذكرى المئوية لاحتلال كل مدينة ، فهو استعراض للقوة فى حساب المستعمر ، ولكنه تحريك للثارات في تاريخ المواطن بصورة أنكأت الجروح وما هي بنائمة، ووضعت المسيرة الوطنية على عتبة الثورة والاستقلال .

---

20 – بدأ تطبيق هذا القانون الذي يمثل شريعة الغاب خلال ثورة المقراني سنة 1871 ، وجدد العمل به بعد ثورة 1881 ثم بعد ثورة عين التركي سنة 1901 ، ثم فى سنة 1912 ، الأمر الذي يدل على أن النفس الثوري فى الجزائر لم يعرف انقطاعا طيلة فترة الاستعمار . انظر (الحركة الوطنية) .

21 – صدر قانون التجنيد فى 2 فبراير 1912 .

22 – الزعماء المعتقلون هم : المختار الكاهية ، علي باش حانبة ، الصادق الزمرلي ، حسن جلاتي ، محمد نعمان ، الشاذلي درغوث ، عبد العزيز الثعالبي .

23 – صدر قرار (فلاندات) فى فيفري 1921 وبموجبه سمح للصحف المعطلة بالعودة ، وبظهور صحف جديدة . انظر (الشعر التونسي المعاصر) محمد صالح الجابري ، صفحة 105 ، الدار التونسية للنشر 1974 .

24 – أصدرته الحماية الفرنسية فى 16 ماي 1930 .

25 – رصدت الحكومة الفرنسية أموالا طائلة لهذه الاحتفالات ، وأصدرت سلسلة كتب تمجيدا لقادة الاحتلال ، ووجهت الدعوة لحضورها الى أوسع نطاق . وكانت هذه الاحتفالات موضع استنكار ومقاطعة من الجزائريين الوطنيين ، والوطنيين الأحرار فى كل مكان .

وان النهاية القاتمة ـــ مرة أخرى ـــ التي كتبت لهذه الثورات والانتفاضات فى العشرينات : كما كتبت لاخواتها فى المشرق ، استشهادا للأبطال أو تهجيرا للزعماء ، اضطهادا لهم وراء القضبان، أو فى المنافي البعيدة : هذه النهايات المختنقة ، كانت بداية الانبعاث المدود النفس• والآمال التي تصاعدت فى موجة هذه الانتفاضات، لم تتهاو مع مصارع أبطالها • والقصائد التي ترنحت بين استقبال البطل ووداعه . بين تحية القائد ورثائه ، لم تعش الأحداث أنفاسا متقطعة : وانما أبعادا متوالدة متجددة مع تجـدد الذكريـات الطعينــة •

في الساحة الفكرية والأدبية :

لن أطيل الوقفة بالنسبة للنهضة الأدبية الحديثة فى المشرق العربي في فترة العشرينات ، فهي مدروسة ، ومستوعبة ، ولكن سأوجز القول بأن المدارس الأدبية من (الأحياء) الى (الديوان) الى (المهجر) الى (أبولو) (26) هذه المـدارس المتزامنـة ، والاتجاهات المتعاصرة ، لم تعرف المواجهة الساخنة مثلما عرفتها فى العشرينات والثلاثينات . وقد تولدت عن هذه المواجهة صحف ومجلات وتفتحت لها أندية ومحافل ، وتعصب لها حواريـون

26 ـــ تزعم هذه المدرسة أحمد زكي أبو شادي بمجلته (ابولو) ، وكان من اقرب الناس الى الشابي ، وأعمقهم تقديرا له . قال عبد العزيز عتيـق عن (ابي شادي) :

« ولم يخدم الادب والشعر فى هذه الايام أحد بمثل ما خدمها الشاعر فقد انشأ مجلة (ابولو) وجعلها منبرا حرا للشعر والدراسات الشعرية فاوجد بذلك نهضة فى الشعر . حرية بالالتفات اليها ، كما كشف لنا عن اكثر من خمسين شاعرا ، كانوا لولاه سيظلون مغمورين مجهولين لا يحس بهم احد » انظر (انداء الفجر) لاحمد زكي ابي شادي ، مطبعة التعاون 1934. •

ومريدون ، وتمخضت عنها كتب (27) ودراسات لم تزل المرجع والمصدر لتحديد البدايات لمدارس أدبية لم نزل نعيشها اليوم .

وبالعكس مما سبق ، سأطيل الوقفة فى مغربنا العربي فلم يزل فى حاجة الى الدراسة ، ان لم يكن بالأحرى فى حاجة الى التعرف الأمين على أحداثه وظروفه ، قبل الاقدام العاطفي على دراستـــه وتقييمـــه .

* * *

ليس من قبيل الصدفة بالمرة ، أن تشهد فترة العشرينات ميلاد الكتب الثلاثة التي ضمت أول مجموعة شعرية حديثة فى أقطار ثلاثة من المغرب العربي ، متتابعة فى صدورها ، كالطرقات على باب عهد جديد ، متجاوبة الافكار فى مقدماتها ، نقدية النظرة فى الترجمة لشعرائها، وان اختلف أسلوب المعالجة من كتاب لآخر .

وقد ضمت هذه المجموعة (كما) (28) من الشعراء ، ان تمايزوا على مر الأيام ، فذهب الزبد ، واحتفظت الأرض بما ينفعها ، فانها المجموعة التي ضمت واحتضنت الشعراء الذين يعتبرون علامات مضيئة في مسيرة النهضة الشعرية الحديثة في المغرب العربي .

1) شعراء الجزائر فى العصر الحاضر ج (1) (1976)
محمد الهادي السنوسي الزاهري (29) ج (2) (1927)

---

27 — مثل كتاب (الديوان) للثلاثي ، العقاد ، المازني ، شكري ، وكتاب (الغربال) لمخائيل نعيمة ، و (السياسة الاسبوعية) ومجلة (ابولو) .

28 — ضمن المجموعات الثلاثة (62) شاعرا ، (شـــعراء الجزائر : 21) (الأدب التونسي : 14) (الأدب العربي فى المغرب الاقصى : 27) .

29 — الطبعة الاولى ، المطبعة التونسية 1344 هـ ، الجزء الاول . الجزء الثاني مطبعة النهضة 1346 هـ — 1927 م .

2) الشعر التونسي فى القرن الرابع عشر (1926)
زين العابدين السنوسي (30)

3) الادب العربي فى المغرب الأقصى (1929)
محمد بن العباس القباح (31)

وسبق هذه المجموعات ديوان مصطفى آغة 1920 وديوان محمد الشاذلي خزندار 1924 و 1925 ثم ديوان (السعيديات) لسعيد أبي بكر ، ويعتبر هذا الديوان نفسا جديدا فى التجربة الشعرية شكلا ومضمونا • وفى سنة 1927 صدر فى تونس للناقد الشاعر الجزائري (رمضان حمود) (32) كتاب (بدور الحياة) يضم مقالاته المتسلسلة عن (حقيقة الشعر وفوائده) التي نشرها بمجلة (الشهاب) الجزائرية و (الترجمة وتأثيرها فى الأدب) (ودعاة التجديد) • وحمود ومضة أخرى فى الحركة النقدية والشعرية فى المغرب العربي ، درس فى الزيتونة ، واخترمه الموت كمعاصره الشابي ، سنة 1929 ولم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وقد خاض معركة القديم والجديد تنظيرا وشعرا ، ووقف من مدرسة (الأحياء) ممثلة فى (شوقي) موقف جماعة (الديوان) منها ، ولكنه تميز بتجرد الفكرة ، واستقلال الرأي ، وربما سبق (العقاد) فى كثير من آرائه فى (شوقي) •

---

30 _ الطبعة الأولى ، مطبعة (العرب) 1345 هـ ، اجتهادا ، لأن الدار التونسية للنشر لم تحتفظ بما يدل على الطبعة الأولى فى النشرة الثانية .

31 _ الجزء الأول والثاني ، الطبعة الأولى 1347 هـ _ 1929 م ، المكتبة المغربية ، الرباط .

32 _ النشرة الثانية (السعديات) لم تحتفظ هي الأخرى بما يعرف بالطبعة الاولى لكن مقدمة راجع ابراهيم للديوان مؤرخة فى غرة ذي الحجة الحرام 1345 هـ والنشرة الثانية ، صدرت فى 1981 عن الدار التونسية للنشر . وكتاب (بدور الحياة) صدرت طبعته الاولى سنة 1346 هـ _ 1928 م .

يقول (العقاد) عن (شوقي) في (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي) الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1930 :

«فالجيل الذي نشأ بعد (شوقي) لم يتأثر به أقل تأثر، لا من حيث اللغة، ولا من حيث الروح . بل ربما كان الاصح أن (شوقيا) تأثر بمن نشأوا بعده، فجنح في أخريات أيامه الى أغراض من النظم تخالف أغراضه الأولى التي كان يعيبها عليه الجيل الناشيء في أوائل القرن العشرين، فاتجه الى الروايات وأكثر من الاجتماعيات والتاريخيات، وعدل أو كاد عن شعر المناسبات الضيقة الذي كان ينحصر فيه، وقلما يتعداه . »

ويقول (رمضان حمود) في سلسلة مقالاته بعنوان (حقيقة الشعر وفوائده) وقد نشرت بمجلة (الشهاب) الاسبوعية في سنة 1927 وكانت تصدر في قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري :

« أنا لا أقول ان (شوقي) ليس له بعض قصائد تحوم حول السياسة والاجتماع، خصوصا في هاته السنين الأخيرة، بعد الحرب العالمية – كالتي بكى بها دمشق أخيرا تحت عنوان (ظئر الاسلام) أو أنه غير قادر على ذلك . معاذ الله . ولكن أريد أن أقول : أن من يجود بمثل (صدى الحراب) و « كبار حوادث وأدي النيل » و « النيل » بنفس واحد، على نسق واحد . لا فرق بين أول ووسط وآخر القصيدة . لا يتخللها ملل ولا ضعف ولا قصور، لقدير،وايم الله، وقدير على أن يدبج بيراعه السيال، وفكره الجوال، روايات شعرية (درأما طيقية) هائلة، حماسية متقدة، وطنية عالية، يتضاءل بجانبها شعر (فولتير و (لامارتين) وروايات (شكسبير) و (هيكو) .

واذا علمنا أنّ (شوقي)ألف رواياته المشهور ابتداء من سنة 1929 • فـ (مصرع كليوباترة) سنة 1929 و(مجنون ليلى) و (قمبيز) سنة 1931 علمنا أن (حمود) يتحدث في الشهاب) سنة 1927 عن (شوقي) حديث المنظر الناقد الرائد . بينما تحدث (العقاد) سنة 1930 عن شوقي حديث المؤرخ ، الدارس للظاهرة الأدبية المطروحة على الساحة •

فقرات (رمضان حمود) استشرافيه مستقبلية ، صـادقة في تنبؤها ، فما لبث (شوق) أن ألف (روايات شعرية درامتيكية هائلـة) •

وفقرات (العقاد) تسجل واقعا يعيشه (شوقي) :

« فجنح في أخريات أيامه الى أغراض من النظم تخالف أغراضه الأولى ، فاتجـه الى الـروايات ، وأكثـر من الاجتمـاعيات والتاريخيـات • »

ويمكن أن نطرح موقفا آخر للمقارنة ، موقف تضافر لمعيه كل من (حمود) و (العقاد) بالنسبة لأثر (شوقي) فى معاصريه ، أو فى من جاء بعده :

يقول (حمود) سنة 1927 :

« نعم ان (شوقي) أحيا الشعر العربي بعد موته ، أو كان فى طليعة من أحياه . وفتح الباب الذي أغلقته السنون الطوال ، ولكنه مع ذلك كله لم يأت بشيء جديد لم يعرف من قبل ، أو سن طريقة ابتكرها من عنده ، وخاصة به دون غيره ، أو اخترع أسلوبا يلائم العصر الحاضر • »

ويقول (العقاد) فى نفس الموضوع سنة 1930 :

« فالجيل الذي نشأ بعد (شوقي) لم يتأثر به أقل تأثر ، لا من حيث اللغة ، ولا من حيث الروح » .

فنحن نلاحظ أن (حمود) فى موقفه من هذه النقطة بالذات ، أكثر تعقلا من (العقاد) فلم ينف عن (شوقي) تأثر اللاحقين به ، وانما نفى عنه ابتكار الأسلوب المميز للمدرسة الشوقية ، والمتجاوب مع روح العصر . واذا كانت المنافسة الشعرية تتحكم فى آراء (العقاد) فتضفي عليها صبغة من العاطفة الجامحة ، والأحكام القاطعة المتطرفة ؛ فان (حمود) فى أعماق جنوب الجزائر ، لم يحكم الا من منطلق الناقد المتجرد ، فان أخطأ فهو خطأ نابع من اجتهاد صادق ، وليس نتيجة لمقدمات مسبقة ، كما هو الحال عند (العقاد) .

وسنتعرض بعد صفحات لموقف (حمود) من (شوقي) بالتفصيل . ولنعد أدراجنا متسائلين : من هو (رمضان حمود ؟!) .

من هو حمود رمضان ؟ !

شاعر لم يحصل أكثر من الشهادة الابتدائية ، ولم يزد عمره الانتاجي على ثلاث سنوات . ترك بين أيدينا ما يقرب من ثلاثين قصيدة . وكتابا سماه (بذور الحياة) ؛ عدا ما لم نعثر عليه من قصائده التي لم تنشر فى الصحف الجزائرية فى أوائل هذا القرن . فقد كانت روح الشاعر المتأججة لا تحتملها الصحافة الراسفة فى أغلال الرقابة الاستعمارية .

شاعر ثار على القديم • ونادى بالتحرر من الوزن والقافية من أربعين عاما ، ورأى فيهما أغلال حديدية لانطلاقة الشعر • دعـا الى التجديد فى كل مظاهر الحياة •

تهجم على شوقي فقال : انه لم يأت بجديد • شوقي فى الطبقة الأولى من الفحول البائدة • شوقي أقال عثرة الشعر ، وصقل ابريزه الذي ران عليه الغبار • ولكنه لم يضف اليه جديدا • ان الشرق وهو يئن تحت نير الاستعمار،في حاجة الى شعراء يرشدونه الى الحرية ، لا في حاجة الى واصفي البالات • ومالجس اللهو •

شاعر تبرأ من السياسة ، ولكنه كان سياسيا وطنيا ثائرا فى كل كلمة تلفظ بها ، وبيت شعر أنشده ، تلقفه السجن بعد اتمـام دراسته مباشرة • وتآمرت عليـه فرنسا لاغتياله فأخطأته أيدي المغتالين ، ولكن يد القدر لم تخطئه فاختاره الله لجواره وهو أوفر ما يكون حيوية ، وأشد ما يكون اقبالا على الحياة وخوض غمارها • كان ذلك في (غرداية) مسقط رأسه في سنة 1929 • وعمره لا يزيد عن ثلاث وعشرين سنة •

ولم اصنـع الأشعـار يـوما تكلفـا
كما شان جـل الناس • سـاء جليبهـا

ولـكن ذكت نفسي ، فطـارت شـرارة
الى همتي القعسـا ، فهـاج لهيبهـا

بـلادي سلاهـا عـن بيـان حقيقـتي
تخبـركم فـورا بـاني ، اديبهـا

أبيات للشاعر تعبر أصدق تعبير • وفي شفافية نافدة عن نفسيته الشاعرة • ونظرته الى الشعر • واعتداده بهذه الصدارة الأدبية

التي تبوأها فى بلاده ، قال الأبيات وهو تلميذ فى تونس • وبعث بها ضمن ترجمة عن حياته ، كتبها بخط يده،ونشرت له مع قصائد فى كتاب (شعراء الجزائر فى العصر الحاضر) •

ورمضان كما يبدو من خلال وثيقة الترجمة التي كتبها بنفسه ، شاعر بالسليقة • الشعر يجري فى عروقة ، ولا يرى فى الطبيعة ومظاهر الجمال فيها الا الهاما له بالشعر • فهو يتلمس الصورة الشعرية فى كل منظر وقعت عليه عينه ، أو صوت تلقفته أذنه •

« ولذا فاني أعتقد أن كل ما خلق الله من الأصوات كخرير الماء وتغريد الحمام ، ونواح الرياح ، وزقزقة العصافير وحمحمة الخيل وبكاء الأطفال ، كلها قصائد شعرية على وزن طبيعي أبرزه الله جل وعلا » •

« أما الشعر فأستاذي فيه ضميري ، ومدرستي الكون وعجائبه اذ لم أقرأ عروضا ولا قافية على معلم ، الا ما اقتطفته بنفسي • بدأت أول الأمر بوضع البيت والبيتين تكلفا • الى أن صار الشعر فى سجية • وأول قصيدة لي هذا مطلعها » :

الا ان هـــذا الدهر مجـــزرة الحـــر
تهـادي بنـا يعـــلو ويخفـق بالغــدر

الثورة على الرجعيّة

شغف شاعرنا بالتجديد في كل مظاهر الحياة ، ونبضت بالايمان به كل خفقة فى قلبه . وسرت الدعوة الى التجديد فى كل لفظة خطها قلمه . وبيت شعر دبجته ريشته . ولم تخل قصيدة له من لفظة (الجديد) مرادفة للفظة (القديم) حتى سمى بعضها « بين القديم والجديد » . ويبلغ أحيانا فى الثورة والتمرد مبلغ زميله ومعاصره الشابي :

ايها الشعب . ليتني كنت حطابا
فاهوى على الجذوع بفاسي

قفل شاعرنا راجعا من تونس بعد أن حرم من متابعة دراسته . فاصطدم فى مجتمعه بالصراع المستميت بين الاصلاح والجمود . والتطاحن الأرعن بين أنصار القديم والجديد . ولم تزل شوكة الرجعية وقتئذ راسخة القدم . محكمة الأسوار . عزيزة الجانب بدخيل يسهر على تغذيتها . ومواطن يعض عليها بالنواجذ بدعوى (أن كل بدعة ضلالة) .

ونهضة الاصلاح في خطواتها الأولى وهي فيها الى الكبو أقرب منها الى الوثبة ، تعاني من قلة الاتباع . ومن تألب الدخيل ومن صلابة الأرض التي تزرع فيها . فالجهل يحجر الأفكار ،

والعادات والأضاليل الفاسدة تطبق على القلوب ، وعلى العيون غشاوة من قداسات الأولياء وكراماتهم المقعدة ، فاذا بجل القوم « صم بكم عمى فهم لا يبصرون » •

لم يفكر شاعرنا فى كل هذه الملابسات ولا فى متطلبات المعركة التي هو مقدم عليها ، ولا قدم فى رسالته رجلا وأخر أخرى ، بل رمى بنفسه في أتون المعركة ، وتبوأ لها مكانا في طليعة الزحف والتمرد على الجمود والرجعية ، أعزل من كل سلاح ، الا قلمه ولسانه ، وصرخة تهبب به من أعماق أعماله •

كان (رمضان) عنيفا فى ثورته على الرجعية كافرا بها كفر من تخرج فى حياة جديدة ، فأنكر حياته القديمة • وعنف من يلمّس حقائق ، أهله عنها متعامون ، يقودهم الى الجنة بالسلاسل فلا ينقادون • بل يرمي من جانبهم بالزندقة والكفر • تلك هي الحجة التقليدية التي حفظها لنا التاريخ ، يرمي بها كـــل مبشر بجديد •

على أننا نجد عند الشاعر الى جانب هذا العنف اعتدالا في الدعوة التي تبناها ، فهو لا يدعو الى فكرة هدامة تقوض الدين من جذوره • ولا مهيبا الى تحرر سافر ، ينبذ الدين وراءه ، متعلقا بقشور الحضارة الغربية. ولاهثا وراء الناعقين من الدخلاء ، انه يحمل من النقمة على هؤلاء ما يحمله على أولئك فهم سواسية فى الاضرار بالمجتمع وبالدين الصحيح ، وهم شركاء فى الخطة المبيتة ، وان كانوا على طرفي نقيض :

نسير وراء النـــاعقـــين ، تهـــالكـــا
لنحضى ببعض الشيء ، والشيء ســافل

نرى قولهم حقا وصدقا وحجة
وان جاء منهم تافه فهو كامل

نقلدهم كالببغاء تفرنجا
ولم نتبع ما قررته الأوائل

نقلدهم فى فسقهم ومجونهم
ولكن سدا بيننا والفضائل

وانا فرادى فى المكارم والحجى
ولكننا فى الموبقات جحافل

ولم يكن تطلعه الى حياة أفضل تنكرا للماضي المجيد : أو تبرأ من أمجاده ، فهو يقول فى كتابه (بذور الحياة) :

« اذا جهلت أمة تاريخها فقد جهلت مستقبلها ، واذا جهلت مستقبلها فقد أسرت نفسها بيدها ، وألقتها فى يد غيرها » .

ويقول :

« الرجعية مضرة بالأمم الا فى التاريخ ، فمفيدة جدا » .

ويحذر من الدخيل الذي يدس أنفه في تاريخ الشعب : « التاريخ يحيى الأمم وقد يكون قاتلها ، اذا شربته من كأس غيرها » . ولم يزل رافعا عقيرته بالتفاتة ماجدة الى ماض أمجد .

* * *

ومثار الدهشة والاعجاب ، فيما تبناه شاعرنا من دعوة تجديدية فى الشعر العربي . وما سبق به عصره من أفكار فى التجديد لاتزال حتى اليوم مجالا للأخذ والرد ، والتشكيك فى قيمها وصلاحيتها ، وتطابقها مع المميزات الموروثة لتراثنا .

كانت دعوته التجديدية فى مجال الأدب أشبه بأختها الاصلاحية فى المجتمع • وفى الجزائر المغلقة المنطوية علـى نفسها فى تلك الفترة ، طابع من الكلاسية العتيقة ، يطبع كل مظهر من مظاهر الحياة فيها • ونزعة ملحة الى اجترار الماضي ، والنسج علـى منواله ، والنحت على قوالبه المعهودة • فقد كان الاتصـال بالشرق الذي يمكن أن يغذي حركة الأدب فى الجزائر بروافد جديدة اتصالا متقطع الأنفاس ، سريا فى أغلب نشاطاته • لأنه فى نظر المستعمر اتصال على حساب هنائه وراحته فى الجزائر •

وقد بلغ التعطش الى روافد الشرق من كتب ومجلات درجة أن العلماء الذين اجتمعوا بالشيخ (محمد عبده) عند زيارته للجزائر فى سنة 1903 رجوه أن يبلغ صاحب (المنار) نيابة عنهم رغبتهم فى ألا يكتب فى مجلته ما يسيء الى فرنسا ، فتعمد الى مصادرة المجلة ، وحرمانهم منها وهم يعتبرونها مدد الحيـاة لهم •

وبالرغم من الانغلاق المذكور ، نجد الى جانبه تفتحا مفروضا هو بدوره تفرضه عصامية عرفت فى أبناء هذا الشعب منذ تقطعت به أسباب الحضارة والرقي والتعليم بتسلط الدخيل ، فخـلق بعصاميته أسبابا لا تنقطع ، وعانق بارادته ما قصرت عنه يد الامكانيات المحدودة • وكلما أمعن المستعمر فى حصر نشاط المواطن الجزائري في المجال المادي بتجهيله ، وربط نظره بلقمة العيش بتفقيره،ازداد زهده في المادة ووضعها على الهامش وركز على المعنى والروح فرضى بالزهيد في المآكل والملبس ، وتملكه النهم المستعر فى مقومات روحه وفكره •

وكانت (العصامية) سببا فى خلق (المدرسة الحرة) التي يحتضنها الشعب ماديا • وخلق (المعلم الحر) الذي يحضنها

معنويا وروحيا . وتحت ضغط الفاقة المادية الخانقة ، ووطأة المطاردة الاستعمارية الصارمة لم تستطع المدرسة ولا المعلم أن يمدا رجليهما أطول من الكساء . وان خـدمت هذه المدرسة رسالة مقدسة ، هي الابقاء على مقومات الشعب ودينه ولغته ، فانها لم تستطع أن تطوح النظرة بعيدا ، ففاقد الشيء لا يعطيه .

ذلك هو القمقم المغلق ، الذي اكتنف المثقف الجزائري . غير أن العصامي الذي استطاع أن يفتح كوة فى القمقم لا يلبث أن يفرضها بوابة ، ثم لا يلبث أن يمد جناحيه للتحليق بعيـدا عن القفص المغلق . الى (جامع الزيتونة) بتونس أو الى (القرويين) بالمغرب ، وقليلا ما اتصلت أنفاس المغـترب حتى (جامع الأزهر) في القاهرة ، فقد كان آنذاك أمنع من عقاب الجـو .

ومن هنا طبع أدبنا بـ (الثورية) المتمردة الساخطة ، لأن حاملها لـم يتمكـن منهـا حتى كسر أغلاله بنواجذه ، وانطلق انطلاقة الناشط من عقال . وتفتحت عيناه على آفـاق جديدة سلبت لبه وملأته ايمانا بها ، ثم ما لبثت الأغلال أن اجتذبته مرة ثانية ، ولم يكن بد من أن يستجيب لها لتضعه مرة ثانية بين القضبان البغيضة ، فتتولد الفكرة الثورية المادرة ، الدائبة العمل لانطلاقة نهائية في فضاء لا متناهي .

وكان شاعرنا من زمرة المتطلعين الى (جامع الزيتونة) فى تونس ؛ ومن زمرة الملقين على الغرب نظرة عابرة . بفضل ثقافة فرنسية ابتدائية . وكانت الشرارة كافية لايقاد جذوة التمرد ، والثورة على كل (تقليد) تجاوزته الأيام ، بعيدا عن الأصالة والجدة والخلق .

ثورة من أجل الفنّ

أنكر (رمضان) فى الشعراء من بني قومه (منظومات) مطولة ، كلها تقطيع وأوزان : ترسل وقرا على الآذان • ولكنها لا تلبث أن تتبع بالتصفيق والاستحسان • كما زفت الى القبر الزهور • فنعى الشعور في أصالته ، وحن الى القصيد في عز ماضيه ، ورثى مصيره فى حاضره ، وقال :

« نعم هو أعلى منزلة من أن يتناوله هؤلاء النظامون الماديون ، عبيد التقليد ، وأعداء الاختراع • اذ لا يدرك كنهه الا من له فكر ثاقب ، وعقل صائب ، وذوق سليم ، حتى يقدر أن يستخرج دره من صدفه ، وسمينه من غثه • ومن نبش دفائنه بغير هذه الآلات الثلاث ، فقد حاول مستحيلا ، وطلب أمرا عسيرا » •

ولكي يخاطب الشعراء بما يفهمون ساق لهم البرهان بلسانهم الموزون :

اتــــوا بكـــلام لا يحــــرك سامعـــا
« عجوز » له شــطر وشطر هــو الصدر
وقــد حشروا اجـزاءه تحت « خيمة »
كعظـم رميـم ، ناخـر ، ضمـه القبـــر

وزين بالوزن ، الذي صار مقتفى
بقافية للشط يقذفها البحر

وقالوا : وضعنا الشعر للناس هاديا
وما هو شعر ساحر • لا • ولا نثر

ولكنه نظم وقول مبعثر
وكذب وتمويه، يموت به الفكر

ثم يرسم الشاعر فكرته في الشعر ، ويضع لها الملامح كما يتصورها هو ، ويجسم لنا بعد نظره في تصوره هذا ، ويحدد تعريفا للشعر ، أبعد ما يكون عن شياته ومظاهره البديعية ، وأنفذ ما يكون الى الأسرار الخفية وراء الأوزان والقوافي والى الروائع المتعددة ، الملهمة لهذه الأسرار :

فقلت لهم لما تباهو بقولهم :
الا فاعلموا ان الشعور هو الشعر

وليس بتنميق وتزويق عارف
فما الشعر ، الا ما يحن له الصدر

فهذا خرير الماء ، شعر مرتل
وهذا غناء الحب ، ينشده الطير

وهذا زئير الأسد ، تحمى عرينها
وهذا صفير الريح ، ينطحه الصخر

وهذا قصيف الرعد فى الجو ثائر
وهذا غراب الليل ، يطرده الفجر

فذلك هو (الشعر الحقيق) بعينه
وان لم يذقه الجامد ، الميت ، الغر

ويزيد الصورة وضوحا بفقرات نشرها فى كتابه (بذور الحياة) وجمعها تحت عنوان (الشعر والشاعر) .

« الشعر وحي الضمير والهام الوجدان » « الشعر موج متدفق يقذفه بحر النفس الطامي » الشعر تموجات روحانية ، تخترق القلوب الحية » « الشعر هو ما حرك الساكن وسكن المتحرك » « الشعر أنفس هدية تقدمها الطبيعة الهادئة الى القلوب الكسيرة » « الشعر هو تلك الجاذبية الساحرة التي تجمع بين النحلة وزهرة الربيع الفاتحة أكمامها » .

ويؤكد نظرته الفنية الجمالية فى سلسلة مقالات نشرها في مجلة (الشهاب) ومنها هذه الفقرة :

« الشاعر والمصور أجيران للفن والجمال . وكلاهما مدين للاجادة والتدقيق في النظر والبحث ، فهذا في المحسوسات وذلك فى الروحيات » .

فكما أن المصور لا يقدر أن يتقن صورته ، الا اذا تزود بجانب وآفر من الشعر والطاقة . وكأن الشكل والمنظر الذي يريده أمامه يراه بعيني رأسه ، فكذلك الشاعر لا طاقة له على امتلاك العقول والأخذ بأزمة النفوس الا اذا أجاد تصوير تلك العواطف الهائلة التي (تمور) في ميدان صدره الرحب ، لا مجرد تنميق وتزويق ، وتكلف مشين . وتعمل بارد : وكذب فادح . فان هذا ما ينقص من قيمة الشعر والشعراء فى نظر الأمة النبيهة » .

ثورة على البرجيّة

وهل بين أحضـان هذا الشعب البـائس الذي وضـعه المستعمر على صعيد متساو من الجهل والفقر ،مجال للبرج العاجي؟ وهل بين صفوفه المحرومة الكادحة منفذ للطبقية ؟ وهـل بين جوانح أي مثقف مهما سمت ثقافته ، دافع للتعالي على القاعـدة الشعبية التي رفعته على أكتافها ؟

لقد خدم المستعمر هذه القاعدة ، يوم وضعها في قالب محدود أفقيا وعموديا ، فما من عنق تطاولت على الحدود المفروضة الا استطالت عليها يد الجلاد . فتخرج الشعب كأسنان المشط ، لم يعرف النبو في قناته ولا عهد الثلمة في صفوفه ، ويوم تفتح له ميدان المعركة وجد نفسه بقضه وقضيضه فى أتونهـا من غير تهديد أو اكراه .

فأية برجية يعنيها شاعرنا ؟ وأي استعلاء يعلن عليه غضبه ؟

ان (البرجية) فى نظر (رمضان حمود) هي أن نخاطب الناس بما لا يفهمون ، أن نتحذلق على شعب ندرك مدى سذاجته وبساطته وحرمانه من الفهم الذي يتسع للحذلقة . الاستعلاء على الشعب هو التعامي عن معالجة مشاكله . واللامبالاة بما

يتخبط فيه من مآسي وآلام • والتلهي بكماليات ذاتية ومغريات ترفيهية :

من الناس قوم لن يبالوا ان أتوا
بغريب لفظ او قبيح بناء

وضعوا الكلام لنفسهم ، وضميرهم
لا للانام كعبرة علياء

جعلوا الكتابة غاية يسعى لها
او منصبا لفخامة وثناء

زعموا الفصاحة والبيان بوضعهم
وعر الكلام كصخرة صماء

فتكلموا بالطبع حسب عقولهم
فاذا بهم في ليلة ظلماء

ان التكلف والتعمل هفوة
ذهبت بروح الشعر والانشاء

وأنكر شاعرنا حتى « التشطير » و «التخميس» وأضرابهما • ورأى فى ذلك ضربا من اللهو والعبث ، والانصراف عن الخلق والابتكار • فقد كان شعراؤنا فى تلك الفترة من شدة اعجابهم بشعراء المشرق مولعين بتشطير قصيدة تصلهم لشوقي أو معارضة قصيدة لحافظ ، الأمر الذي دفع (رمضان) الى أن يقول :

« فمن شاء منكم التشطير فليشاطر مواطنيه فى الأمور العظام والأعمال الجليلة ومن أراد المعارضة فليعارض الخونة سماسرة السوء • ويعاكسهم فى أعمالهم الخبيثة • ومن كان له غرام بالاحتذاء فليحتذ أجداده الكرام وأسلافه العظام فى ابائهم وثخوتهم ، وعزهم وقوتهم وسلطانهم ، وايمانهم وانسانيتهم وجميع

خصالهم الحميدة . ومن تعلقت نفسه بالمدح ، فليمدح الأخلاق الفاضلة وينشرها بين قومه . ومن مال الى الهجاء فليهجو العادات الفاسدة ، ويذم الرذيلة بأنواعها ، ومن أحب التغزل فليغتزل فى وطنه الجميل الذي يعيش فيه ، ويأكل خيراته . فبذلك تسعد الأمة وترتقي » .

وعاش شاعرنا هذه الفكرة قولا وعملا ، وقف عاطفته على شعبه المعذب فلم تقرأ له قصيدة غزلية ، وانشغل فكره بمصير وطنه فلم يتغن بغير النهوض به . وهب قلمه لخدمة القضية الوطنية ، وشعره للتبشير بها :

وشعري كالحسام يصون عرضا
بلا حرب عوان او قتال
يصادم من يعيث بمجد قومي
ويطعن ذا الضلال بلا نزال
ويضرم جذوة الالباب نارا
ويشعل انفسا اي اشتعال
أسيره كما شاءت ظروف
ولكن كله نحو المعالي

* * *

الا يا عاذلي كفوا ، فاني
اصبت بحب شعب ذي خصال
وخلوا عن ملاومتي ، فاني
صبور ثابت ، صعب المنال
بلادي تلك ، ويحكم اتركوني
فقد ملكت جناني بالدلال
لساني يشتكي ، والقلب يرجو
بجدع الانف ايام الوصال .

تلك هي العاطفة المشبوبة فى نظر شاعرنا • وذلك هو الغزل النابض فى وجدانه ، وذاك هو الوصال المنشود الذي يتحرق شوقا اليه •

وان تلمسنا ملامح (الغزل) فى البيتين الأخيرين فقط ، فاننا لنقرأ قصائد غزلية برمتها ، تتقد شوقا وصبابة وتتلظى حرمانا وهجرانا : وتضرع الى المحبوب فى تهالك مؤلم • ولن يكون المحبوب (غير الحرية) ، هذه اللفظة التي لو لم ترد عنوانا للقصيدة لما تردد قاريء فى أنها تحكي قصة غرامية عاشها صاحبها :

لا تلمني فى حبها وهواها
لست أختار ما حييت سواها

هي عيني ومهجتي وضميري
ان روحي وما اليه فداها

ان عمري ضحية لأراها
كوكبا ساطعا ببرج علاها

فهنائي موكل برضاها
وشقائي مسلم لشقاها

ان قلبي فى عشقها لا يبالي
تنطوي الارض ام يخر سماها

قد قضى الله ان تكون كصوت
وقضى ان يرد روحي صداها

ان فى العشق رحمة وعذابا
وعذاب العشيق شوب جناها

- ثورة على الوزن والقافية -

الا جددوا عصرا منيرا لشعركم
فسلسلة التقليد حطمها العصر
وسيروا به نحو الكمال ، ورمموا
معالمه حتى يصافحه البدر

ليس من غرابة فى هذه الدعوة الى التجديد فقد عرفنا الشاعر ثائرا متمردا داعية لطي ما بلى من آثار الحياة ... وعموم الدعوة الى الابتكار فى أوسع مجالاته يكسبها طابعا من العفوية المعتادة. ولكن الغرابة والسابق لأوانه فى البيئة التي عاشها الشاعر ، والفترة التي عاصرها أن تتجه الدعوة الى الوزن والقافية وتتركز الفكرة التجديدية فى عنصرين هامين من عناصر الشعر العربي ما يزالان مثارا للسجادلات العنيفة .

ومن العجب أن الفكرة البكر ، قد تكون أبعد متناولا من يد شاعرنا الداعي اليها . ويعجز أن يكون مصداقا لها حتى فيما يكتب من أشعار . ولكنه مع ذلك مؤمن بها ، متحمس لها يهيب بكل شاعر ذي كفاءة أن ينهض بها ، وينعي على القاعدين من شعرائنا اقتناعهم بالتقليد واجترار الماضي .

وقد سبق أن تهكم بهم :

اتـــوا بكـــلام لا يحـــرك سـامعـــا
« عجـوز » له شطر وشطر هو الصـدر
وقد حشـــروا اجـزاءه تحت « خيمة »
كعظـم رميـــم ناخـــر ضمه القبـــر
وزيـن بالـــوزن الذي صـــار مقتـفى
بقـافيـة للشـــط يقذفهـــا البحـــر
وقالوا : وضعنـــا الشعر للناس هاديـــا
وما هـــو شعـــر ساحـــر ، لا ، ولا نثـــر
ولـكنـــه نظـــم وقـــول مبعثـــر
وكـــذب وتمويه ، يمـــوت به الفـــكر

وليست المشكلة مشكلة الألفاظ المرصوفة فى بحر شعري ، عارية من روح الشعر كما يبدو من هذه الأبيات ، ولكنها أبعد مرمى . وأنفذ الى صميم الموضوع . كما يبدو من هذه الفقرات للشاعر نفسه :

(الشعر تيار كهربائي ، مركزه الروح . وخيال لطيف تقذفه النفس ، لا دخل للوزن ولا للقافية فى ماهيته . وغاية أمرهمـــا أنهما تحسينات بديعية لفظية ، اقتضاها الذوق والجمال فى التركيب لا فى المعنى . كالماء لا يزيده الاناء الجميل عذوبة ولا ملوحة ، وانما حفظا وصيانة من التلاشي والسيلان .

وعلى تلك السنة . وذلك المجرى وضع العرب (ديوانهم) وهم أميون لم يدخلوا مدرسة ، ولم يتلقوا حكمة اليونان . ولا مدنية الرومان . ولم يعرفوا وزنا ولا قافية ، وانما حاكوا بشعرهم نغمات الطبيعة المترنمة) .

ثم يغرق شاعرنا فى البرهنة على أصالة فكرته . ورجوعها الى جذور عميقة فى التاريخ ، وفى أقدس نص عربي :

« ولو أنهم قصدوا بالشعر الوزن والقافية ، لما قالوا فى بداية الدعوة المحمدية — على صاحبها أفضل السلام — أن القرآن شعر ، وأن صاحبه شاعر مجنون . مع علمهم أنه كلام مرسل . لا أثر للوزن فيه ، وأن صاحبه لم يسمع منه بيت فى سوق من من أسواقهم ، ولا فى مجتمع من مجتمعاتهم . ولا تحدث عنه بذلك » .

ثم لا يلبث (رمضان) أن يصف القافية بأنها (أغلال) حديدية كبلت الشعر وتطوره :

« على أن النهضة الأندلسية وان حطمت أغلال القافية التي أن الشعر تحت ضغطها الحديدي ، وأدخلت تحسينات فى الوزن المعروف . فانها لم تتجاوز هذه الحدود المادية .

لعلنا حتى اليوم ، لا نستطيع أن نقول بملء فينا ، ان القافية غل حديدي ، فما تزال الشاعرية المقتدرة تبرهن على طواعية القافية الموحدة مهما طال نفسها .

ثم يحاول شاعرنا جاهدا أن يبرهن عمليا على صدق ما يقول : وهو راسخ الايمان بأنه أعجز من أن يرقى الى مستوى الفكرة . ويحس بشاعريته — وهي بدورها — مكبلة بالأغلال الموروثة . وانها أقصر جناحا من الانفلات منها ، ولكنه يحاول :

بكيت ومثلي لا يحق له البكا
على امة مخلوقة للنوازل

بكيـــت عليهـــا رحمـــة وصبـــابـة
واني عــلى ذاك البـــكا غيــر نـــــادم

ذرفــت عليهــــا ادمعــا مــن نواظــــر
تســـــاهر طول الليـــل ضــــوء الكواكب

ويمضي ع الأبيات فى سجية مطواعة ، لا ينتقي لها اللفظـة المفروضة لتجري على الروى الواحد • ولكنها تستقر تلقائيـا فى اللفظة التي يطلبها المعنى دون الالتفات الى سابق أو لاحق •

ثم يسوق مثلا آخر • ولعله هذه المرة للوزن ينفض يديه منه • بينما يحتضن القافية مرة أخرى :

انت يا قلبي فريد في الألم والأحزان
ونصيبك من الدنيا الخيبة والحرمان
انت يا قلبي تشكو هموما كبارا وغير كبارا
انت يا قلبي مكلوم ودمك الطاهر يبعث به الدهر الجبار
ارفع صوتك للسماء مرة بعد مرة
وقل اللهم ان الحياة مرة
اعني اللهم على اجتراعها
وامددني بقوة ، فاني غير قادر على احتمالها

ثم يثوب الشـاعر الى رشده ويحضن الوزن والقافية معـا ويستسلم للأغلال :

ويــــلاه مــن هــم يـــذيب جوانـــحي
فكأنمـــا فى القـــاب جـــذوة نـــادر

نفســي معـــذبة بهـمـــة شـــاعـــر
دمـــعي على رغـــم التجـــلد جـــار

حظي علـى متـن النـوائـب راكـب
تمشـي بـه لمحـطة الأكـدار

قد خـانني دهـري وتـلك سجيـة
للـدهر مثـل سجيـة الأشـرار

هـو دائمـا لي عـابـس متنـكر
حـتى الطبيعـة ، حسنهـا متـوار

وتنساب القصيدة فى مقطوعات خماسية كهذه . تستقل كل واحدة بقافيتها • بينما تتخلل المقطوعات فقرات نثرية مقفاة كالتي ضربنا المثل بها •

ان الذي يشغل ذهني ـ وأنا أعالج الموضوع ـ لا الفكرة من حيث هي فكرة . تكون قابلة للمناقشة . والأخذ والرد • ولكن فى انبعاثها المبكر . وفى الجزائر بالذات . من وليد بيئة فى القطر الجزائري لم تعرف الا ملاحقة لطابع من المحافظة الراسخة فى جنوب الجزائر • يخيل الي أن رمضان حمود تمثل غير مرة يقول المتنبي :

انـا فى امـة تـداركـهـا الله
غـريب ، كصـالـح في ثمـود

وكم بشر رمضان بأفكار . وحلق فى أجواء ، وسابق الزمن حتى تشرف بقلب (المجنون) من بني قومه :

« الوطنية أن تنصر الفضيلة . وتكشف اللثام عن وجه الحقيقة . وتصبر كل الصبر . وتشكر قومك حين يهدون اليك وسام الجنون ولقب الطيش •

ثورة على شوقي

هل من العجيب أن يتصدى شاعرنا لشوقي • ناقدا وموجها بعد الذي عرفناه من أمره • ان تحامله على شوقي مظهر تطبيقي من مظاهر دعوته التجديدية . وشوقي فى نظر شاعرنا لم يعد ملك نفسه ، وانما هو ملك الجميع ، وأن امارته على الشعر ادعى لتركيز النظر فيه : وتطلع الأعناق اليه ، وأن تميزه فى القصيدة أوجب لمناقشته الحساب . والأنظار لا تتجه الا الى المتربع في الصدارة •

وبواعث التصدي لشوقي هي نفس البواعث لآرائه التجديدية• وقبل أن يتلفت اليه . يعترف له بالمكانة التي احتلها بجدارة ، ويرفع يديه مبايعا بالامارة مع وفود المشرق التي بايعت مع حافظ •

« وما هي الا جولة اثر جولة حتى ظهر من بين تلك الغيوم المتلبدة فارس الميدان أحمد بك شوقي ، حاملا لواء القوافي فوق رؤوس اخوانه الشعراء ، سائرا أمامهم ، شامخا بأنفه نحو السماء ، فجدد دولة الشعر ، ورفعها بعد سقوطها ، وأعزها بعد ذلها • فكان جزاؤه من هذا العمل الجدير بالاعجاب أن أعترف الناس له بالامارة الكبرى فى دولته الجديدة ، فتقلدها مستحقا لها •

وها هو العالم الاسلامي الفتي ، يريد أن يحتفل بأحمده كما احتفلت فرنسا بهيجوها ، والانكليز بشكسبيرها • فشكرا جزيلا للمحتفل ، وهنيئا للمحتفل به » وبعد أن يؤكد هذه التوطئة يكر راجعا على أمير الشعراء :

« نعم ان شوقي أحيى الشعر العربي بعد موته ، وفتح الباب الذي أغلقته السنون الطوال ، ولكنه مع ذلك لم يأت بجديد لم يعرف من قبل أو سن طريقة أبتكرها من عنده ، وخاصة به دون غيره ، أو اخترع أسلوبا يلائم العصر الحاضر • وغاية ما هنالك أنه جاء بالهيكل القديم للشعر ، الموضوع فى قرون بلى عهدها ، ودرس رسمها فكساه حلة من جميل خياله • ورقة أسلوبه ، وفخامة ألفاظه ، وقوة مادته ، وتوجه باتساع دائرة معارفه ومعلوماته ، وضرب له على أوتار قلوب ، كانت تتمنى بجدع الأنف أن يرسل الله لها من يسمعها نغمات شعر الفحول من القدماء ، ويحتذى حذوهم ، حتى تكون حياتهم متصلة بسلسلة محكمة العقد مع حياة أجدادهم ، فلما ظهر شوقي تلقته على ظمأ » •

ثم يؤكد رمضان نظرته الى شوقي بوضوح أكثر ، ويضع يده على موطن الداء ونقطة الضعف : ويؤكد الذم بما يشبه المدح :

« شوقي • وما أدراك ما شوقي شاعر حكيم مجيد فى الطبقة الأولى من الفحول البائدة • له غيرة كبيرة على الأدب القديم ، متمسك به الى حد التقليد ، وعدم الالتفات الى جوانبه • وأكثر شعره أقرب الى العهد القديم منه الى القرن العشرين الذي

يحتاج الى شعر وطني قومي سياسي حماسي ، يجلب المنفعة ويدفع الضرر • ويحرك الخاملين •

ويصل الى صميم الموضوع ، الى الفكرة التي سبق أن دعا اليها : ونعى فيها شعراءنا اللاهين القابعين على هامش الحياة وشعوبهم في معمعان المأساة :

« ان الرثاء والمديح ووصف القصور و (البالات) والمعارضة والافتخار بمن سبق من الأمم البائدة ان لم يكن لعظة تاريخية ، نحن في غنى عنها مادام الشرق كله يئن تحت نير الغرب » •

وهو لا يعري شوقي من المواقف الوطنية والقصائد السياسية. بل ان تجربته فيها تقيم عليه الحجة ، ومساهمته فيها يجهد المقل . تنعي عليه انعدام المساهمة الفعالة •

أنا لا أقول ان شوقي ليس له بعض قصائد تحوم حول السياسة والاجتماع حصوصا في هذه السنين الأخيرة بعد الحرب العالمية كالتي بكى فيها دمشق أخيرا تحت عنوان (ضُر الاسلام) أو انه غير قادر على ذلك ــ معاذ الله ــ ولكن أريد أن أقول : من يجود بمثل (صدى الحرب) و (كبار حوادث وادي النيل) و (النيل) بنفس واحد ، على نفس واحد ، لا يتخللها ملل ؛ ولا ضعف ولا قصور لقدير وأيم الله ، وقدير على أن يدبج بيراعه السيال • وفكره الجوال ، آيات شعرية (دراما طيقية) هائلة حماسية ، متقدة وطنية عالية : يتضاءل بجانبها شعر (فولتير) و (لامارتين) وروايات (شكسبير) و (هيجو) » •

وهو لا يريدك أن تسيء الظن بعواطفه نحو أجداده وتراثهم ولا يرضى منك أن تفسر دعوته الى التجديد تفسير العقوق

الماضي • والتنكر للأمس . فهو بالعكس من ذلك ، اعتـــزازه بالأمس ، هو الدافع له على بعث حاضره ومستقبله ، وحرصه على خلود التراث والموروث هو الباعث له عــلى تجديده وتلقيحه بما يكسبه عنصر الحيوية ، فان رأيه فى التجديد هو :

« ليس التجديد آلة نهدم بها ما بنته أسلافنا ، لكنه قوة غير متناهية نرمم بها الماضي ، ونمهد بها للمستقبل » •

ويقــول :

« نعم ، ان المتقدمين لهم فضل علينا • ومزية كبرى لا يستهان بها • ولا يجوز أن نغمطها أو أن نغض الطرف عنها فيبعثنا التاريخ فى زمرة كافري النعم ، الذين ضل سعيهم فى الحياة ، وفى الآخرة هم الأخسرون أعمالا » •

ويتوجه أخيرا فى رجاء ضارع الى (شوقي) أن ينهــض بالرسالة التي قيضه الله لها ، مهيبا به أن يتدرع بالجـرأة فى التبشير بهذه الرسالة :

« اننا نترقب ليل صباح خطة جديدة يسنها لنفسه بنفسه ، ويدعو الناس اليها ويباشرها بيده • مادام متمتعا بنعمة الحياة ولــو يلاقي صدمات عنيفة وعراقيل جسيمة فى سبيل نشرها والذود عن حياضها : فان وراء ذلك سعادة أمة جمعاء ورفع لغة هي أم اللغات » •

أود أن لا يفهم من اثارتي هذا الموضوع أنني أريد أن أضيف سمعة جديدة لشاعر جزائري على حساب أمير الشعراء كالشاعر الذي هجا بشارا ليكتسب شهرة من رده عليه • ولكن لأبين

الى أي مدى كان التجاوب أصيلا بين المغرب العربي والمشرق العربي فى وقت كان فيه المشرق يعتقد أن الجزائر لا تتكلم الا بلسان فرنسي مبين .

ولعل رمضان نفسه كان يدرك المرتقى الصعب الذي تجشمه ، فقدم المبررات التي تشفع له وأشار فى آخر حديثه على شوقي الـــى :

وقد يقال : ما الفائدة فى تتبع خطوات رجل أجمعت الناس على علو كعبه فى الشعر والأدب . وبلادك فى غاية الانحطاط فيهما : فأقول له :

1 ـ خدمة الأدب بقطع النظر عن البلاد السائد فيها .

2 ـ لم أقصد بنقدي ، التنقيص من سمعة الشاعر الكبير ، فقدره أعلى منزلة من أن تتناوله يد التطاول .

3 ـ أبناء المغرب مشغوفون بالتشبث بأذيال أبناء المشرق من عهد بعيد ، رغم الحواجز التي بنتها يد الاستعمار .

4 ـ مصر مهد العربية الآن ، ومنبع العلوم والأدب المشرقي فيجب أن نراها فى تقدم مستمر .

5 ـ ان كان الكلام على شوقي وأضرابه ، فان القصد منه انارة الطريق الذي يجب أن يسلكه أبناء الجزائر . لأن الشرق غني عن أقوالنا فى هذه الأيام كما يظهر .

6 ـ شغفي بالتجديد فى كل شيء فما بالك بالأدب الذي هو كل شيء .

7 ـ عدم اعترافي بنهضة الشرق الحديثة مادامت لم تؤسس على مباديء عظيمة ، وحياة جديدة ، وأدب قومي .

8 ـ اتخاذي فى الأدب دينا غير الذي دانت به القدماء .

ثورة على الظلم

اقــــول جـهــــارا ولا انـثـــني
وئـو كان فى القـــول مـر العتـــاب

دعـوني ، فمـا المجـد الا العنـــا
وخـوض الجـلائــل عنـــد الطــلاب

فليســت تنـــال العـــلا صـدفـــة
ولكنـهـــا بركــــوب الصعــــاب

دعـــوني ، اناضـــل عـــلى امـــة
فغـــائلـهـــا بيـــن ظفـــر ونـــاب

دعـــوني انـاضــــل عـــلى امــــة
عليهـــا تـــوالـت شـــرور الذئـــاب

فامســـت تنـــوح عـلى عـزهـــا
وتبـكي دموعـــا كوطـــف السحـــاب

تلك هي الأمة الشقية : المتجرعة للمرائر التي أججت فى قلبه جذوة الثورة وأذكت شرارة الحماسة فى ضميره ، فأهاب به الى الانتفاضة :

فها صـــوت الضمير يهـــز صـــدري
ويـــامــــرني بـاشـفـــال ثقـــال

فسوعـــا يـا ضميري . كن قريـــرا
رضيـت بحكمـك العــذب الــزلال

فاني لا امـــل ، وســـوف اســـعى
الى رفـــع الستـــار عـن المـحـــال

اضحى ما اتيت وفـــوق جهـــدي
الى ان يبلـــغ الشـــعب المـعـــالي

وهو ثائر على الضعف والاستخذاء . متمرد عـلى السلبية القابعة . والذئاب تعيث فى الأرض فسادا . ثائر على الآهة العزلاء والدمعة المتخاذلة . وان ذرفها أحيانا وترك لنا قصيدة . كلها بكاء ونواح وعنوانها (معة حارة) :

بكيـت ، ومثلي لا يحـــق لـه البكـــا
عـلى امــة مخـلوقـــة للنـــوازل

ولـم أبك جبنـــا او مخافـــة ناطـــق
فـلي همـــة متناهـــة للجـــلائـــل

تمـــر عـــلى المكـــروه وهي طليقـــة
وتلبس ثـوب الصبـــر عنـــد العظـائم

فهو بكاء لا مفر منه . ولكن حتميته لا تقوم مبررا له . كمـا لا نجد مبررا لهذه التخريجات الملتوية السلبية فى وجه الخطوب المسلطة على الشعب :

علام نلـــوم الـدهـــر ، والله عـــادل
وننســب لـلايـــام ما هـــو باطـــل

ونملأ وجـــه الارض رطبـــا ويابســـا
بكـــاء ، وهل تجـــدي الدموع الهواطـل

وتجــزع للمــكروه من كل حـــادث
ومـــا ذاك الا مـــا جنتـــه الأنـــامـــل

ومهما يكن من أمر الدموع الهاطلة المستكينة . فانها أشرف من الضحك الساخر والشعب فى مأتم :

أيهـا الضاحكـــون والشـــعب باك
مــن صـــرف بــه تشيــب الجنينــا

ذاب قلــبي ، ومات جســمي شهيــدا
مــن صـــروف به تشيب الجنينـــا

يــا الهـــي وانــت تعــلم ســــري
بين قومي صــرت الغـــريب الحزينــا

عجـــل النصـــر للبـــلاد . فـــانـــا
لمهـــاوى البـــلا نســـاق عزينـــا

يا حبيب القـــلوب . مهـــلا . فـــاني
بالفـــدا ، لا اكـون عنـــك ضنينـــا

واذا ثار شاعرنا على الضعف فهو مؤمن بالقوة . واذا كفر بالتعلات المنعرجة فهو مقدم فى طريق واضح من التضحية والصبر على المكروه :

ولا أعيـــش بـــارض الـــذل مكتئبـــا
فالـــذل من شيمـــة الانذال والســـفل

وابذل النفس فى سبـــل الحياة فـــدى
« ولا اعـــول فى الدنيـــا على رجـــل »

فهـــاتـــه غـــايتي بالجـــد ابلغهـــا
وابتـــنى منـــزلا فى دارة الحمـــل

وهو واسع الصدر عند ضيق الموقف . فاذا به يعشق السجن قصرا منيفا ، ويسفه الجبناء الذين يصورون الزنزانة قبرا مظلما :

سمعت بـــأن السجن أضيق من قبـــر
فألفيت قعـــر السجن أحسن من قصر

فماذا يفيـد القصر ، والقـلب بنضـاله
وماذا يضـر السجن من كان ذا قـــدر

ومـــن لم يذق طعـــم الردى بنضـــاله
« سيشكو الأذى والدمع من عينه يجري»

ولم يكتف بالشعر تمجيدا للسجن وتنويها بمآثره ، بل ترك لنا فى كتابه (بذور الحياة) فصلا مستقلا تحت عنوان (السجن) :

« بين جدران السجون تنبت شجرة الحرية الاستقلالية »

(السجن مدرسة فيها يتعلم المهضومون كيف يقاوم الظلم والاستبداد) •

(السجن رمز على ضعف الاستبداد والجبروت) •

« ليس العار أن تغشى السجن ، ولكن الخزي الأكبـــر أن تسامح فى بنيك ووطنك خوفا من السجن » •

« ما سمعنا يوما بأن السجن والابعاد والاعدام قضت عــلى أمة أبدا ، بل ما رأينا ذلك الا فاتحة مجدها وعزها وعظمتها » •

« ان « للباستيل » أيادي بيضاء عــلى عظمة فرنسا التي نلمسها اليوم بأيدينا ونراها بأعيننا » •

وشاعرنا الذي عشق (الحرية) في صورة حسناء ، وناغاها بلسان الشوق والهيام في رمزية مقنعة بعيدة عن الرقباء ، انفجر به الشوق ، فأزاح القناع بعيدا عن الرمزية ، وعانق حريته سافرة ، تغنى بها صراحة فبعث اللفظة طليقة مجنحة غير مكبلة بتمويه ولا مختنقة بتلميح :

« ما أجملك أيتها الحرية . وما أفظعك . جميلة لأنك نور الله ، ينير طريق الانسان في هذا العالم المظلم . وفظيعة لأن الأسباب الموصلة اليك لا تخلو من الدماء والأهوال التي تقشعر منها الجلود » .

« من يبكي لنكبة أصابت ماله وأولاده أكثر منه لفقدان حريته ، فليس بانسان ولا حيوان ، وانما حجر جامد » .

« ليست الحرية خبزا يؤكل ، وماء يشرب ، ولكن دون بلوغها أهوال تشيب منها الولدان . وأعمال تنفطر لها القلوب » .

« لا تترعرع الحرية الا في مهد الاضطهاد والظلم » .

انها النفس الجامحة والاباء الأرعن ، الذي يعانق السجن الضيق : هاربا من الانطلاق المزيف ، ويحضن القضبان فرارا من الحياة الخانقة :

« بأي حق ، وبأي قانون وبأية شريعة تكمم أفواهنا ، وتخنق أنفاسنا ، ولنا ضمائر حية وقلوب حساسة » .

« تريدون أن تبتروا أيدينا ، ونقبل أيديكم . وتسبوننا ونمدحكم . هذا محال لا يقع ولن يقع ، مادام لنا ذرة من النخوة والاباء ، وما دام الدم العربي يجري في عروقنا » .

« كيف نحترم ونحب من لا يتمنى لنا الا الدمار . ولا يعيش الا فى ظل شقائنا وتعاستنا » .

« وكل ما ألقاه فى سبيل أحياء وطني وبلوغ مقصدي لا يثبط همتي لأنني متيقن أن لا خطب أعظم من الموت والموت فى هذا السبيل أحلى من الشهد المقدس » .

« كل من يتألم لرؤية الفساد والعسف فى غير وطنه . يصلح لأن يكون وطنيا خادما لبلاده وأمته » .

« الغلو فى الوطنية محمود . ولكن بشرط أن نحترم أفكار غيرنا ، وأن نقبل الحق من حيث أتى ومن أي فم خرج » .

وتغنى بسواطنيه الأقوياء وأهاب بكل (وطني) غيور : أن لا يتسامح فى شبر من أرضه وأن لا يحشر نفسه فى موقف من الضعف والتردد يكون على حساب عزته وكرامته . وجعل صفة (الوطنية) فيه عروسا لمهر غال فقال له :

أنت وطني .. مادمت ..

« أنت وطني : مادمت تشعر بوجودك الحقيقي وشخصيتك البارزة بين الأقوياء المستبدين » .

أنت وطني : مادمت ترى أن التسامح فى أقل حق من حقوقك يفضي الى انهيار مجدك الضخم الكبير » .

« أنت وطني ما دمت ترى أنك خليق بالبقاء ، وجدير بالحياة أمام الغاصب جناية لا تغتفر » .

« أنت وطني مادمت ترى أنك خليق بالبقاء وجدير بالحياة وان كانت فؤوس الاستعمار موضوعه فــوق رأسك . وقبر الدمار فاغر فسه ليبلعك » .

وحلم بالجزائر الفتاة وتعشقها • ورسم لها فى مخيلته أكثر من صورة ، وعاش يناجيها فى عالم الغيب • متعلقا بطيفها متحرقا اليها فى عالم الواقع والحقيقة :

« الجزائر قامت تنادي أبناءها ، وتلتمس منهم المعونة على الصعود الى سماء الرقي والحياة ، ولكنهم ــ ويا للأسف ــ لا يزالون لاهين بالسفاسف من الأمور ، مشتغلين بما لا يعني ولا يجدي نفعا • فهم لا يسيرون شبرا من الارض الا ويعدونه تقدما باهرا يستحق الالتفات » •

واعتز بتاريخ بلاده وأولاه لفتة اكبار وتقدير ، ورجا مخلصا أن يكون هذا الماضي المجيد باعثا على المستقبل الأمجد :

« اذا صح أن الأمم لا تتكون الا من طينة تاريخها الغابر وأن الأمة التي لا تاريخ لها لا تنهض الا باندماجها فى غيرهـــا ، فان للجزائر العزيزة تاريخا ماجدا وماضيا خطيرا يذكر بكل اجلال وتعظيم » •

« لن تحشر الجزائر من رمسها وتاريخها مدفون :

واعتز بتربة وطنه ، خصبة بالحرية ، ولودا للأحرار •

« الجزائر تربة صالحة للنبوغ والحرية لغيرة أبنائها وحرارتهم النادرة فلو انصف الدهر ورحل الجهل : لرأي العـــالم منهم العجائب التي تذهب الألباب » •

ذلك هو رمضان فى وطنيته الصادقة وثورته الماردة عـــلى الظلم . وذاك هو الشـــاعر النافذ النظرة الى المستقبل البعيد والمعانق فى سنة 1928 الجزائر الفتاة التي أذهلت العالم اليوم بالعجائب والمعجزات بعد أن انصفت نفسها ، فأنصفها الدهر •

الشاعر الفقيد

قالت مجلة (الشهاب) الجزء الثاني عشر / يناير 1930 :

« نعت الينا رصيفتنا (الاصلاح) (1) الغراء نبأ وفاة الشاعر النابغة ، والأديب الفني ، والمصلح الوطني ، فوقع علينا ذلك النبأ الوقع المؤلم حتى كأنما بتر عضو من جسدنا وأظلم أمامنا قسم عظيم من الجزائر ، كنا نعلق انارته على جده وعمله واخلاصه ، وأعظم المصائب ما أثر فى مستقبل الأوطان ، وأفدح الرزايا ما أضعف قوة الأمم .

فنحن والحزن يأخذ منا كل مأخذ نعزي فيه الملة ، والوطن ، والأدب سائلين له الرحمة ، ولآله الصبر والسلوان » .

تلك هي الدمعة السخينة التي تلقت بها مجلة (الشهاب) نبأ وفاة شاعرنا فقيد العشرين من عمره ، وتلك هي الآهة الجريحة تصعدت مؤبته أنفاسا متقدة ، انطفأت فى ريعان اتقادها وحيويتها .

لقد تمثل الفقيد وطنه حرا مستقلا ، وهام به فى دنيا الخيال موطنا للعزة والكرامة ، فلم تمهله المنية ليعيش أفكاره وآماله واقعا ملموسا .. كما يعيشه زملاءه ومعاصروه من الشعراء الجزائريين .

---

1 ـ (الاصلاح) التي أصدرها الشيخ (الطيب العقبي) في بسكرة . وذكر الزركلي في الاعلام ج 3 أن العدد الذي نعى رمضان من (الاصلاح) صدر في رمضان 1348 هـ .

مسابقــة « الشهاب »

قصيد المقال الفائز

للاديب الوطني صاحب الامضاء

السؤال :

سالونى بما ذا تحيا البـلاد　وبما ذا تعيش فيه العباد
كاسود طليقة في حماها　لا ترى ما يسوءها لا تقاد
وبما ذا يقوم شعب ضعيف　من سقوط وقد دهته الشداد
وبما ذا يكون اصلاح قوم .　نبذوا الدين للوراء وحادوا
هل دواء هناك صفه فانا　في عذاب يسومنا — هل ضماد

الجواب :

قلت هانى اجيبكم فسماعا　حضروا ذهنكم ولبوا اليراعا
اسمعوه وعوه هـذا مقالي　ان شرطي ان لا يكون مضاعا
لست ابغي الا نصيحة قومى　ومقال النصوح صار مطاعا
لست ابغي الا الصلاح في عصر　بعث العلم نوره والشعاعا
فاقت الناس من رقاد طويل　ثم سارت الى العلاء سراعا
كونوا وحدة وسيروا جميعا　وانبذوا عنكم الخلاف الشنيعا
واجعلوا للوفاق فيكم مكانا　لتنالوا به المكان المنيعا
خبروني فهل سمعتم شعوبا　ادركت بالشقاق مجدا رفيعا
قوة الناس باتحاد متين　وقوي حقوقه لن تضيعا
كل شعب ابناؤه في افتراق .　باك بين الانام شعبا وضيعا

ثم صونوا بما لديكم دينا　كان دين الاله دينا متينا
وارجعوا للكتاب فهو ضياء　وسناء ومرشد الحائرينا
والى سنة الرسول المفدى　من اتى رحمة الى العالمينا
ذاك دين الاسلام دين حنيف　لو اتى غيره لا مسى دفينا
فهو دين الرقي دين طبيعى　لم يخالف شرائع الكون فينا
لا تظنوا باننا سوف نرق　ان نبذنا الاسلام جهلا وحمقا

ما بلغنا الحضيض الا بزيغ   وكذا الضعف بالتمرد يبقي
لا يعيش الانسان الا بدين   او نظام وما عدا فهو يشقى
هل ترى الدين ما يقولون زورا   ليس دين الاله رقصا وفسقا
سودوا وجهه بخبث وقبح   فهم في الضلال هلكي وغرقي .

انشلوا الدين من يد الهادمينا   واصلحوه لعلكم تهتدونا
لقنوه الى الشبيبة جهرا   واعرضوا عن مقالة الجاهلينا
لا تبالوا ان حاربوكم بجهل   اتركوهم في غيهم يعمهونا
ليس يرجى الصلاح منهم وفيهم   من يرى الدين سلعة البائعينا
كل خير في الكف عنهم وفي السعـ   ـي وراء الصلاح عطفا ولينا

انفقوا وقتكم في نفع البلاد   وانقذوها بحكمة وسداد
وانشروا رأية العلوم عليها   واعملوا جهدكم في فتح النوادي
شيدوا للبنين ادوار علم   ليعيشوا الاحرار بين العباد
زودوهم من كل فن نصيبا   ان نور العرفان أفضل زاد
لا تقوم البلاد من غير علم   انما العلم سلم للرشاد

لا ينال الحياة الا القدير   وكريم الاخلاق ليث هصور
زينوا علمكم بفضل وخلق   ليس يبلى السري وتبلى الدهور
انما الناس بالمكارم تحيا   وتموتون بالخنا والفجور
حكموا العقل واجعلوه اماما   قيمة المرء عقله والضمير
نحن نحتاج للمكارم دوما   ان كبونا فالويل ثم الثبور ،

وامتطوا صهوة الجرائد واعدوا   كي تنالوا حقوقكم وتردوا
واشهروا ان قدرتم منها الوفا   فهي سور حول الحمي فهي جند
ولها الفضل في رقي جديد —   من صداها يزلزل المستبد
غير انى اخاف من شر قوم   ركبوها بلا علوم وشدوا
فبذاك النجاح يمسى قتيلا   وهي — واحسرتاه — خصم الد

لا يكونن مستقبل الشعب خصبا ان جهلنا ما فات سلما وحربا
علموا للبنين تاريخ قوم — دوخوا الدنيا شرقها ثم غربا
حببوا المجد والنهوض اليهم ان ماضينا كان للمجد قطبا
واغرسوا فيهم شهامة ملك ملأ الكون — بالجلالة — رعبا
كل عز نراه كل نعيم في شباب على المكارم شبا

ذاك عقلي وقد عرضته عرضا فهو لا زال في شبابه غضا
كل ما قلته في سبيل بلادي لم أرد حقها ولم اقض فرضا
يا بلادي لا تيأسي ان سكتنا فلنا عزمة من السيف امضى
يا بلادي فديت بالنفس صبرا نحن نسعى ما ان في القلب نبضا
يا بلادي لك الحقوق علينا فامهلينا فالحق لا بد يقضى

لتعش الجزائر الفتاة !!
ليعش الشباب الناهض !!
وليعش كل حر مخلص تحت سماء البلاد !!!!

رمضان حمود

صورة لقصيدة (حمود رمضان)
في مسابقة مجلة (الشهاب)
وصورة غلاف كتابه (بذور الحياة)

بذور الحياة

بقلم

* رمضان حمود بن سليمان *

لطف الله به

الجزء الاول

* أن الكلمة الرشيدة اذا *
* صدرت من قلب نقي طاهر *
* وبذرت في قلب يشابهه *
* تولد منها غصن الامل والحياة *

١٣٤٦ ــ ١٩٢٨

- من شعره -

الصحافة

ان الصحـــافـــة نـــور للبـــلاد اذا
سارت موفقة فى احسـن السبـل

هي الفـؤاد لشعب قد غـدا سكنا
هي الحسام طويل الحـول والحيـل

هي اللسـان لهـا حـكم وسيـطرة
هي الرسول لدى الأجنـاس والـدول

هي الطبيب يـداوي مـن به مـرض
من الجهـالة ، او ميـل الى الزلـل

فامة نبـذتهـا ، لـم تنـل ابـدا
ما ترتجي . لحيـاة العـز لـم تصـل

* * *

يا رافعـا (1) قلما للحـق تشهـره
جـزاك ربـك محتـلا كمرتحـل

ان الشعـوب اذا من جهلهـا نكبـت
نـام الرئيس . فعاش القوم فى ذهـل

---

1 ـ يخاطب الشيخ (أبا اليقظان) صاحب جريدة (وادي ميزاب) .

وهـــذه امـــة فى الجهـــل حـائـــرة
وانهـــا فى عـــذاب غيـــر محتمـــل

لـك الـرعايـــة فـالآذان صـاغيـــة
فاصدع بحـق . ولا تركـن الى ملـــل

فســر ، ودع قـول من خست مقاصده
(فى طلعة البـدر ما يغنيك عن زحـل)

وانذر ، وانهـض بلاد ســـاء موقفهـــا
بين الأنـــام وكـانت قبـــل فى قلـــل

وانفـخ بهـا قـوة تشفي الغليـل بهـــا
واصرخ وحـرض وايقظهـا من الكســل

شـر البـلاد ، بـلاد خـاف ساكنهـــا
من جمـرة الجور ، أو من فتكة السفـل

* * *

لهـــفي عـلى امـــة عاشت مكـــدرة
ما بالهـــا سبحت فى آلـذل والوهـــل

كبارها قد رضـــوا بالجهـــل منقبـــة
ايرتجى الخـــير من نشء ومكتهـــل

وهكذا امـــة الاســـلام . وا اســـفى
خابت مســـاع لهـــا بالجهل والخبـــل

لمـــا تنـافـرت الافكـــار ، واشتعلت
نـار النـــزاع ، رماها الله بالعـــلل

قـــد ترتـــدي امـــة ذلا ومسكنـــة
ولـم يقـــم مجدهـــا الا على رجـــل

آه . وهــل رجـــل يبـــني دعائمهـــا
فــوق الفــراقد . او فى دارة الحمـــل
فيصبح الحـــر حـــرا لا قيـــود لـــه
فيمتـــلي قلبـــه بالـــروح والأمـــل

وادي ميزاب ع 94/نوفمبر 1926

الحُرّيّة

لا تلمني فى حبها وهواها
لست اختار ما حبيت سواها

هي عيني ومهجتي وضميري
ان روحي وما اليه فداها

ان عمري ضحية لأراها
كوكبا ساطعا ببرج علاها

فهنائي موكل برضاها
وشقائي مسلم لشقاها

ان قلبي فى عشقها لا يبالي
تنطوي الأرض ، ام يخر سماها

قد قضى الله ان تكون كصوت
وقضى أن يرد روحي صداها

ان فى العشق رحمة وعذابا
وعذاب العشيق شوب جناها

لم انل من حبيبي الا صدودا
وصدود الحبيب نار وراها

هجرتني من غير ذنب ، ولكن
كل ذنبي فى كون قلبي اصطفاها

قيـــدتـــني وخلفتـــني اسيـــــرا
في يــد الوجــد محــرقــا بلظــاهـــا

فارقتنـــي بـلا وداع ، وخــافـــت
مـــن وداعـي تعلـــقي بــرداهـــا

تــركتـنـي ولــم تــراع هيـــامي
عـــذبت مهجتي بشحـــط نــواهـــا

هـكذا سنـــــة المحبـــة تقضـــي
بشقـــائي مـــادمـــت ابـغي لقـــاهـــا

ايـــه يـــا دهــر فــارفقــن بقـــلب
يحمـــل الخطب والهمـــوم سواهـــا
ايهـــا الطـــائر المحلـــق فـــوقـي
هل اجــد فيـــك حكمـــة وانتبـــاها

اتـــرى هـــل تـــكون مني رســـولا
يحمـــل الســـر للحبيـــب وجـاهـــا

بلغنهـــا مقـــالة مـــن صـــديـــق
حيـــن تـــاتي ديـــارهـــا وتـــراهـــا

ان ذاك الـكئيـــب مـــازال خــــلا
يحفـــظ الـــود والعهـــود قصـــاهـــا

اتمـنى بـــان اراهـــا فمـــا احـــلى
وصـــالا يــكون فيـــه رضـــاهـــا

كـــاد حــبي لهـــا يبـــدد جســمي
بسهـــام بيـــن الضلـــوع رمـــاهـــا

قـل لهـــا ماشهـــدت مني جميـــعا
فعســـاها تـــرثي لحـــالي عســـاهـــا

(وادي ميزاب) ع93/27 جوليت 1928

يا قلبي

انت يا قلبي . فريد في الألم والأحزان
ونصيبك من الدنيا الخيبة والحرمان
انت يا قلبي . تشكو هموما كبارا ، وغير كبار
انت يا قلبي مكلوم ، ودمك الطاهر يعبث به الدهر الجبار
ارفع صوتك للسماء مرة ، بعد مرة
وقل اللهم ان الحياة مرة
اعني اللهم على اجتراعها
وامددني بقوة ، فاني غير قادر على احتمالها
اللهم انها مرة ثقيلة ، فليس لي فيها طريقا

* * *

ويلاه من هم يذيب جوانبي
فكانما في القلب جذوة نار
نفسي معذبة بهمة شاعر
دمعي على رغم التجلد جار
حظي على متن النوائب راكب
تمشي به لمحطة الأكدار
قد خانني دهري وتلك سجيبة
للدهر مثل سجية الأشرار

هــو دائمــا لي عـابــس متنــكر
حـتى الطبيعــة حسنهــا متــوار

* * *

يا قلبي • هل لا وصابك من طبيب يداويها
وهل لحزنك من غاية يقف فيها ؟
ما هذا الشقاء الذي تهتز منه جوانبك ؟
وما هذه الكآبة التي ترافقك وتجانبك ؟
اما آن للسعادة ان تشرق في سمائك !
اما آن للبدر ان يسطع في ظلماتك !
اما آن ان ينطق بالافراح دهرك الصموت !
فتغيب السعادة وتضمحل وتموت !!
فتصبح في الحياة حرا طليقا

* * *

ايهـا القـلب خفـف الحــزن واصبـر
ان في الصبــــر للـكمــاة دروعــــا

ايهـا القــلب والـدمــوع سجــام
فأمـر العيــن أن تصــون الدمـوعــا

ودع اليــأس والأســى ، وتــــرقـب
كم فــؤاد باليــأس بــات صريعــا

ودع الشجــو والــكـآبة ، واعــلم
ان نــار الأسى تـذيــب الضـلوعــا

انــت ان كنـت في الـوجــود غريبــا
فـلقد عشــت فيـه حــرا وديعــا

* * *

يا قلبي لا تبكِ على حظك المنكود
ولكن رحمة وشفقة على شعبك المنكود
يا قلبي يقولون ان البكا ضعف فى العزيمة
وان الشجاع الصبور لا يجزع عند الهزيمة
نعم . انت لا تبكي جزعا ولا ياسا
ولكن ليبعث فيك مر البكاء شدة وباسا
ويحضك على القيام بالواجب
وان تعددت الخطوب ، وتوالت المصائب
اذا فابك من الدماع مدرارا

* * *

رنـــة تجـــرح الحشـــا وتـــذيـــب
وبـــكاء تطيـــــر منــــه القلـــوب
فى بـــلادي تـــرى الهـــوان جبـــالا
فـــرؤوس الصغـــار منـــه تشيـــب
كـــل فـــرد يشـــكو همـــومـــا ثقـــالا
لســـت أدري مـــتى الحيـــاة تطيـــب
لســـت أدري متـــى تكـــون رجـــالا
لســـت ادري مـــتى الشقـــاء يغيـــب
يـــا الهـــي منـــك الشفـــاء لشعـــبي
رب رحمـــاك . انـــت انـــت الطبيـــب

(وادي ميزاب) ع95/10 اوت 1928

علام نلوم الدهر

علام نلـــوم الــدهـــر والله عـــادل
ونـنـسـب للأيـــام مـا هـــو بــاطـــل

ونمـلا وجــه الارض رطبـا ويابســا
بـكاء . وهل تجـدي الدموع الهـواطـل

ونجـــزع للمـــكروه من كل حـــادث
ومـــا ذاك الا مـا جنتـــه الأنـامـــل

فلـــن يظلـــم الله العبـــاد بحكمـــه
ولـكن كفـر المـــرء للمـــرء قـاتـــل

* * *

ونزعـــم انـــا مسلمـــون وديـننـــا
تعيــث بــه الأهـــواء والـكل ذاهـــل

ونبـغي حياة العـز والجهـــل دابنـــا
وهل نال عـــزا فى البسيطة جـاهـــل

نسيـــر وراء النـاعقيـــن تهـالـــكا
لنحضى ببعـض الشيء والشيء سـافل

نرى قولهم حقـــا وصدقـنـا وحـــجة
وان جـــاء منهم تافه فهـــو كامـــل

نقلدهم كالببغاء تفرنجا
ولم نتبع ما قررته الأوائل

نقلدهم فى فسقهم ومجونهم
ولكن سدا بيننا والفضائل

وانا فرادى فى المكارم والحجى
ولكننا فى الموبقات جحافل

شباب على نهج الغواية سادر
وشيب عن الارشاد والنصح عادل

فكيف يقينا الله من سوء بطشه
وما هو عما يفعل العبد غافل

* * *

قبيح قبيح ان نسير مع الهوى
ضلالا وقد قامت علينا الدلائل

قبيح علينا أن نرى فى بطالة
وننبذ ثوب الجد ، والغير عامل

قبيح بني قومي السكوت ، وديننا
على عزه قد انكرته الافاعل

قبيح . بني قومي السكوت مخافة
وشعبكم يدعو : الا من يناضل

قبيح عليكم ان تردوه خائبا
وفي الذكر ان الله للخلق قائل

فـــان تنصـــروني انني خيـــر ناصـــــر
وان تخذلـــوني فالشـــقا والبـــلابـــل
اشتـــت شمـــل العـــابثـــين بحـــكمتي
وما هو شعـــر ســـاحـــر ، لا ولا نثـــر

(وادي ميزاب) ع 14/100 سبتمبر 1928

لو كنت

لو كنت شخصا بليدا   اعمى البصيرة تائه
فى الجهل اسعى واعدو   ورافلا فى هوائه
له على اياد   على ثوب هنائه
لكنت اسعد حظا   من عالم بذكائه
اذا دعاني ضميري   نبذت صوت ندائه
لا اخدم الفكر الا   مقللا من بلائه
ولا اهز براعا   لسفك طهر دمائه
ولا اطالع سفرا   مكدرا لصفائه
ارى بهذا الكون سرا   يطوف حول فنائه
فيذهب الحزن عني   لانني من هبائه
اعيش فيه طليقا   بلا قيود ريائه
فذالك حظى من العيـ   ـش راضيا برخائه

* * *

فها « علمت » فاني   مستعبد فى بنائه
ولو كرهت ، فانني   اسير تحت لوائه
ان شاء عشت ذليلا   او شاء فوق سمائه

فذو المعارف يشقى   والبؤس طي ردائه
ان التعاسة سم   ممزوجة بدمائه
والعقل يقتل هما   من يهتدي بضيائه
كم عالم مات غما   بصبره ووفائه
او عاش وهو كئيب   وفائد لرجائه
وجاهل فى نعيم   يجول فى علوائه

- من نشره -

حقيقة الشعر وفوائده *

* نظرة عامة وبحث لطيف *

قد يظن البعض أن الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفى ولو كان خاليا من معنى بليغ وروح جذاب ، وان الكلام المنثور ليس بشعر ولو كان أعذب من الماء الزلال ، وأطيب من زهور التلال . فهذا ظن فاسد واعتقاد فارغ وحكم بارد . اذ الشعر كما قال شابلن   هو النطق بالحقيقة : تلك الحقيقة العميقة : الشاعر بها القلب ، والشاعر الصادق قريب من الوحي .

نعم هو أعلى منزلة من أن يتناوله هؤلاء النظامون المذيون عبيد التقليد وأعداء الاختراع ، اذ لا يدرك كنهه الا من له فكر ثاقب وعقل صائب وذوق سليم ؛ حتى يقدر نأ يستخرج دره من صدفه وسمينه من غثه ، ومن نبش دفائنه بغير هاته الآلات الثلاث فقد حاول مستحيلا ، وطلب أمرا عسيرا ؛ وكان من الذين :

اتــــوا بكـــلام لا يحـــرك سـامعــا
((عجوز)) ا، ((شطر)) وشطر هو ((الصدر))
وقد حشــروا اجـزاءه تحت ((خيمة))
كعظـم رميـــم نــاخـــر ضمه القبـــر

(*) سلسلة مقالات متتابعة نشرت في مجلة الشهاب الغراء ابتدأت من 30 رجب 1349 ـ 3 فيفري 1927 .

وزين « بالــوزن » الذي صـــار مقتفى
« بقــافية » للشط يقذفهـــا « البحر »

وقالوا وضعنا « الشــعر » للناس هاديا
ومــا هو شـــعر ســاحر لا ولا نثـــر

ولكنـــه « نـــظم » وقـــول مبعثـــر
وكـــذب وتمـويه يمـــوت به الفـــكر

فقلت لهـــم لمــا تباهـــوا بقولهـــم :
الا فاعلموا أن الشعـــور هـــو الشعـــر

وليـــس بتنميـــق وتزويـــر عـــارف
فمـــا الشعـــر الا ما يحـــن لـه الصدر

فهـذا خـــريـــر المـــاء شـــعر مـــرتـــل
وهــــذا غنـــاء الحب ينشـــده الطيـــر

وهذا زئيـــر الأسد تحـــمي عرينهـــا
وهــذا صفير الريـــح ينطحه الصـــخر

وهذا قصيف الرعـــد فى الجـــو ثـــائر
وهــذا غـــراب الليـــل يطرده الفـــجر

فــذاك هو « الشعر الحقيـــق » بعينـــه
وان لـــم يذقه الجـــامد الميت الغـــر

الشاعر والمصور أجيران للفن والجمال ، وكلاهما مدين بالاجادة والتدقيق فى النظر والبحث . فهذا فى المحسوســات ، وذاك فى الروحيات .

فكما أن المصور لا يقدر أن يتقن صورته الا اذا تزود بجانب وافر من الشعور والاطاقة ، وكأن الشكل أو المنظر الذي يريده

أمامه يراه بعيني رأسه • فكذلك الشاعر لا طاقة له على امتلاك العقول والأخذ بأزمة النفوس ، الا اذا أجاد تصوير تلك العواطف الهائلة التي تقوم فى ميدان صدره الرحب ، عندما يريد أن يعرب للسامع عن خاطر من خواطره الخاصة أو العامة كانت ، لا مجرد تنميق وتزوير وتكلف مشين وتعمل بارد وكذب فادح • فان هذا مما ينقص من قيمة الشعر والشعراء فى نظر الأمة النبيهة ، ومما يزهدها فى سماع بنات أفكار الفحول منهم • بل قد يهبط بالقومية الى أسفل سافلين من جهة الأجانب أيضا فانهم يستلزمون بسيرة هؤلاء الناعقين ــ قادة الأمم فى كل عصر ومصر اما الى الجحيم واما الى النعيم ــ ان أبناءها هازلون لا جادون وانهم محتاجون الى التأديب والتقريع أكثر منهم الى التعليم والتثقيف ؛ اذ هم عالمون ولكنهم متلاعبون ، وسائرون ولكنهم متقهقرون •

وعندي أن الغرب ما تقدم الا بشعرائه المجيدين ، ولا تأخر الشرق الا بشعرائه المعكوسين الذين ارتدوا ثوب الجمود والتقليد ونسوا واجبهم الوطني الشريف ، ومالوا الى اللهو والمجون فنسجت العامة على منوالهم ، فمات الشعور القومي والميزة الشرقية وتلبدت غيوم الجبن وحب الذات على العقل ؛ ومسخت النفوس وعم الوبال جميع الطبقات •

نعم انك لا ترى في هاته السنين الأخيرة الا مخمسا ومشطرا ومعارضا ومحتذيا ومادحا وهاجيا ومتغزلا و « مسمطا •• !! » الى غير ذلك مما يدل على البطالة المتناهية التي دهمت هؤلاء الأقوام البؤساء فى عقر دارهم فقضت على حياتهم النفيسة وعزهم الموروث وملكهم الشامخ ؛ فصاروا آية للناظرين وعبرة للمعتبرين•

فيا أيها الشعراء الأحداث ، بكم تحيا الأمة وبكم تموت ــ لا قدر الله ــ فأنتم رسل الحرية والسعادة الأبدية ان شئتم ، وأنتم النعاة ان أردتم •

ان قمتم بواجبكم فمرحى !!

وان تقاعدتم عنه فبرحى !!

الا جـددوا عصـرا منيـرا لشعـركم
فسلسـلة التقليـد حطمهـا العصـر

وسيروا بـه نحـو الكمـال ورممـوا
معـالمـه حـتى يصـافـحه البـدر

كمـا كان من قبـل الرشيـد وبعـده
فتلك عصـور الشعر حـف بهـا النصر

فمن شاء منكم التشطير فليشاطر مواطنيه فى الأمور العظام والأعمال الجليلة ، ومن أراد المعارضة فليعارض الخونة سماسرة السوء ويعاكسهم في أعمالهم الخبيثة ، ومن له غرام بالاحتذاء فليحتذ أجداده الكرام وأسلافه العظام فى ابائهم ونخوتهم وعزهم وقوتهم وسلطانهم وايمانهم وانسانيتهم وجميع خصالهم الحميدة ومن تعلقت نفسه بالمدح فليمدح الأخلاق الفاضلة وينشرها بين قومه ، ويتشبث بالفضيلة ، ومن يسل الى الهجاء فليهج العوائد الفاسدة ويذم الرذيلة بأنواعها ، ومن يحب التغزل فليتغـزل فى وطنه الجميل الذي يعيش فيه ويأكل خيراته •

فبذلك تسعد البلاد وترتقي •

فمعذرة أيها القاريء الكريم ، علنا انحرفنا بك من موضوعنا الأول ، فها نحن نعود والعود أحمد فنقول :

الشعر كامن فى أعماق نفس الانسان كمون النار فى الحجر تظهر آثاره للخارج بالتحاكك والممارسة . وقد يشعر العامي الجاهل الأمي ويكهرب النفوس بشيطانيته ويترك أثرا مبينا في قلوب السامعين . ويحاول العالم العروضي مجاراته فلا يفعل شيئا . سنة الله فى نفوس عباده ، وهل تجد لسنة الله تبديلا ؟ .

وذلك أن الأول ـ بقطع النظر عن لحنه وتحريفه ـ يرسل كلامه من نفس متقدة وروح ملتهب وقلب مملوء احساسا وشعورا . فيلقي رواجا كافيا فى أسواق الأفئدة والصدور .

والثاني . ينمق كلامه تنميقا ويزوره تزويرا فيرسله مع بريد التكلف والركاكة . فيأتي كثوب ضم سبعين رقعة ، مشكلة الألوان مختلفات . فهو لا يتجاوز الآذان ولا يساوم بأبخس الأثمان . فحذار أيها المنشيء الأديب أن تتقدم خطوة واحدة الى صناعة الشعر ـ فهو ليس بصناعة ولا بضاعة كما يقولون ولكنه الهام وجداني ووحي الضمير ـ بنحوك أو صرفك أو عروضك أو قوافيك أو بلاغتك أو كثرة مادتك ، اذا لم تجد فى نفسك وازعا نحوه ، وميلا اليه وتلذذا غريبا روحانيا لسمعه يكاد ينسيك نعيم الدنيا وما فيها . فانك ان فعلت ولم تراع هاته الشروط اللازمة ضيعت وقتا نفيسا وعمرا ثمينا ، وجنيت خزيا وعارا .

فالشعر تيار كهبائي مركزه الروح . وخيال لطيف يقذفه النفس . لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته ، وغاية أمرهما أنهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال فى التركيب لا في المعنى . كالماء لا يزيده الاناء الجميل عذوبة ولا ملوحة . وانما حفظا وصيانة من التلاشي والسيلان .

فعلى تلك السنة ، وذاك المجرى وضع العرب « ديوانهم » وهم أميون لم يدخلوا مدرسة ولم يتلقوا حكمة اليونان ولا مدنية الرومان ولم يعرفوا وزنا ولا قافية ــ بعد قررها الخليل ــ وانما حاكوا بشعرهم نغمات الطبيعة المترنمة ، وكانت صالحــة لاحتواء ما يختــلج فى صدورهم النقية من العواطف كالحب والبغض والسرور والحزن والحلم والغضب ، فنسبوا وافتخروا وتحمسوا ورثوا ومدحوا وهجوا ووصفوا وبكوا الأطلال .

ولو أنهم قصدوا بالشعر الوزن والقافية لما قالوا فى بداية الدعوة المحمدية ــ على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحيات ــ ان القرآن شعر . وان صاحبه شاعر مجنون ، مع علمهم أنه كلام مرسل لا أثر للوزن فيه . وان صاحبهم لم يسمع منه بيتا فى سوق من أسواقهم ولا فى مجتمع من مجتمعاتهم ، ولا تحدث أحد عنه بذلك أبدا . وانما هو الكلام المبين والقرآن الحكيم تركهم فى ريبهم يعمهون .

* * *

الشعر مسطر بريشة الشعور على صحائف لغات الأمم الخاصة بها . سواء كانت متمدنة أو متوحشة . ولا يختص بالأولى وحدها بل ربما انتشر بين أفراد الثانية أكثر منه فى تلك . خلاف النثر فانه ابن العلم والتمدن والشعر هو الذي يهيء له الطرق اذ يترعرع مع الانسانية فى مهدها وينمو تدريجا على قدر القــوة الفطرية والقابلية العقلية فيها . فهو ناموس عام تدخــل تحت تعاليمه جميع الكائنات . وقد يبلغ الغاية القصوى والقدح المعلى فى لغة قوم . فيكون الآمر الناهي . وقائد زمام نهضتهم وعليه تدور رحى حياتهم الاجتماعية . وهو ما نشاهده الآن فى أوساط الغربيين الفائزين . وقد يوجد ولا يذكر بحكم الأمية السائد ــ رغم

أهميته فى تلك اللغة ــ كشعر سكان أواسط افريقية الذين لم يبلغهم نور الحضارة ولا رسول التمدن ، أو كشعــر العامــة عندنــا .

وقد ينبت نبتا حسنا فى لغة خصبة واسعة الأرجــاء بعيدة الأطراف بديعة الحسن ويسقى بماء التقييد والتفنن والابداع فيسر لرؤيته الناظرون ويفتتن برشاقته المفتتنون ثم لا يلبث أن يرميه الله بريح عاصف من جانب التقليد الأعمى والجمود المميت فيمسي فى خبر كان أو أثرا بعد عين . ومن هذا القبيل شعرنا العربي المنكوب ، الذي اقتطفت زهرته من بستان الحياة فى ريعان شبابه ، فترك أبناءه حيارى لا دليل لهم ، يتخبطون بكل واد ويتبعون كل ناعق ، واحسرتا عليه !!!

ألهم أهل الجزيرة الفيحاء الشعر وضربوا فيه بسهم صائب وتفننوا فى جميع أنواعه البدوية ، وتمسكوا به تمسكهم بدينهم ولغتهم وقوميتهم وعوائدهم وأخلاقهم ، بل جعلوه مرآة حياتهم فحفظوا به أنسابهم وتفاخروا به على بعضهم بعضا وعلى من سواهم من الأمم المجاورة لهم ، فقامت به قبائل وضعية النسب وقعدت به أخرى جليلة الشأن وبشراراته شنت الغارات ووقعت الحروب الطوال ، وبه اطفئت ، وكاد حاملو لوائه يعبدون من دون الله ، وهم الذين قال فيهم شاعر الشرق حافظ بك ابراهيم على لسان لغتهم :

« سقى الله فى ارض الجزيرة اعظما
يعز عليها ان تلين قناتي ،

حفظن ودداي فى البلا وحفظته ،
لهن بقلب دائم الحسرات »

فصار يتدرج فى سلم الرقي ــ تبعا لسنة النشوء والارتقاء ــ رويدا رويدا بفضل الأسواق والمحافل التي كانوا يقيمونها لأجله فى المواسم والأفراح ، الى أن طلعت عليه شمس الاسلام المنيرة بأشعتها القرآنية ، مسحت وجهه ولينت خشونته وهذبته تهذيبا محسوسا وسارت به شوطا بعيدا نحو الأمام . ثم جاءت الحضارتان المبيضة والمسودة فأثرتا فيه تأثيرا عميقا وأدخلتا فيه تحسينات معنوية ذات بال ، وأهمية كبرى لم تعرف منه قبل .

ولاشك أن الأخيرة أجنبية عنه اذ أنها فارسية أكثر منها عربية ولهذا تجده غالبا فى ذلك العصر ــ العباسي ــ ممزوجا بثقافة وروح فارسية تكاد تلمس باليد حين تقارنه بشعر من سبق من الأعراب الأصليين المنزويين فى جزيرتهم الجرداء .

ولها والحق يقال ــ أي الحضارة الفارسية ــ أياد بيضاء فى ترقيته ، والسير به فى مدارج الكمال .

ولكن هل بعد ذلك وصل الى غايته ومنتهاه ؟

وهل لبث فى مكانه ، لا الى الأمام ولا الى الوراء ؟

أم كبا كبوة ذهبت بقوته ؟

تلك أسئلة عريضة طويلة ، تجيبك عنها الدموع الغزار ، والزفرات الأليمة ، والتأوه المذيب ...!!

وذلك أنه سلط عليه من يقتله بالتحسينات الكاذبة والاستعارات الفارغة ، والتشبيهات المملة ، وافراغ المعنى القبيح فى اللفظ المليح ، والزام ما لا يلزم ، وتعقيد العبارات ، والاتيان بالكلمات الغريبة الغليظة الشبيهة بصلب الحجر ، فخنقوا أنفاسه وقضوا عليه قضاء مبرما ، لا حياة بعده الى يوم يبعثون .

واني لأصف هؤلاء المتحذلقين الأغبياء بقولي :

فى الناس قوم لن يبالوا ان اتوا
بغريب لفظ او قبيح بناء

وضعوا الكلام لنفسهم وضميرهم
لا للانام كعبرة علياء

جعلوا الكتابة غاية يسعى لها
او منصبا لفخامة وثناء

زعموا الفصاحة والبيان بوضعهم
وعر الكلام كصخرة صماء

فتكلموا بالطبع حسب عقولهم
واذا بهم فى ليلة ظلماء

بلي الاديب بجهلهم وحياتهم
اذ حدثوا بجهالة ورباء

قد شوهوا وجه الجمال بفوهة
نزلت به من منزل الجوزاء

ان التكلف والتعمل هفوة
ذهبت بروح الشعر والانشاء

لو سرحوا الاقلام تجري طليقة
لأتت لنا بعجائب الأشياء

ماذا عسى يجدي الكلام لمن مضى
لكن لب القول للأحياء

ولكن الأدب ، وان عبث به أقوام لا يعدم أنصارا يأخذون بيده . فقد تداركه الله برحمة من عنده اذ ، قيظ له من جانب الغرب رجالا ، وهم الأندلسيون :أحيوا معالمه ، ونبشوا دفائنه، بل

كسروا تلك الأغلال الثقيلة القاسية التي أوقفته عن السير زمنا • وقد قامت عليهم قيامة الجامدين المقلدين ، فاعتمدوا في ثورتهم ــ هاته ــ الأدبية على سلطان الغناء القاهر ، المتبوء عرش الأفئدة والصدور • وسموا غزواتهم الظافرة « الموشحات » فوشحوا الأدب العربي بحلة ذهبية لا تبليها أيدي القرون • فقد وسعوا فيه ، وزادوا ونقصوا وخالفوا من سبقهم من النظامين الواقفين كصخرة عثرة في سبيل نموه ، وجاءوا بالعجب العجاب في تلك الثورة المباركة التي « لو » أمد الله عمرها ، وأطال أيامها لأصبحت الثريا وما أدراك ما الثريا حذاءها الوضيع •

على أنها وان حطمت أغـلال القافية التي أن تحت ضغطها الحديدي الشعر ، وأدخلت تحسينات في الوزن المعروف من قبل فهي لم تتجاوز هاته الحدود المادية كثيرا ، ولم تعتـن بدرس نفسية الأمة درسا مدققا في ذلك العصر الذهبي الجميل ، ولم ترفع الستار عن سر أطوارها العديدة التي تقلبت فيها حاملة لواء النصر والسيادة على افريقيا وأوربا ، حتى تترك لنا صحيفـة خالدة طافحة بمكامن أسرارها ــ أي الأمة الأندلسية ــ وخبايا زواياها ودرجة النهوض التي بلغتها في كل دور من أدوارها • اذ أن بيتا من الشعر صدق صاحبه فيه ،ونظر عصره بتأمل وانصاف وبحث دقيق خير من ألف مجلد من مجلدات التاريخ الحافلة بسرد وقائع ذلك العصر سردا • لأن العبرة بالاجادة والتحقيق لا بالاكثـار والتلفيق • إنظر الى فيكتور هيـكو الفرنسي وشكسبير الانكليزي اللذين صورا لنا عصرهما أحسن تصوير ــوان بحثا في حياة القرون الوسطى أكثر من بحثهما في عصرهما ــ فانك لا تطالع رواية أو ديوانا لهما الا وتشعر بنفسك كأنها تقهقرت الى زمانها ، والى ما قبل ، فصارت تنظر ما هنالك من

رقي وانحطاط ، وعدل وجور، ونظام وفوضى ،وتدين والحاد الخ ببحث لطيف يسيل رقة وبيانا . وما ذلك كله الا بالانقياد الى الاحساس والشعور ، لا الى الهوي والنفس والتأثيرات الخارجية كالخوف من الملوك مثلا .

ماتت تلك الدولة الأندلسية فمات الشعر العربي معها ولا زال ميتا أو مغشيا عليه وجثته الهامدة ملقاة تحت عروش الأعاجم الى أواخر القرن الثالث عشر الهجري حيث قيض الله من ينفخ فيه روح الحياة الجديدة ويحشره من رمسه المظلم الى عالم النور والهواء العليل . فتشبث بأذياله كثيرون ، منهم المجيد ومنهم ، المتوسط ومنهم المتطفل ، سنة الله فى كل شيء توجهت اليه همم خلقه .

* * *

وما هي الا جولة اثر جولة ، حتى ظهر من بين تلك الغيوم المتلبدة والطبقات الثلاث ، فارس الميدان ـ أحمد بك شوقي ـ حاملا لواء القوافي فوق رؤوس اخوانه الشعراء ، سائرا أمامهم شامخا بأنفه نحو السماء فجدد دولة الشعر ورفعها بعد سقوطها وأعزها بعد ذلها ، وهكذا سنة التجدد والحشر جارية فى نظام الكون من منذ ابتداء الخليقة الى يومنا والى ما بعد ، فكان نصيبه وجزاؤه من هذا العمل الجليل الجدير بالاعجاب أن اعترفت الناس له بالامارة الكبرى فى دولته الجديدة فتقلدها مستحقا لها ولسان الحال ينشد :

« ولم اجد الانسان الا ابن سعيه
فمن كان أسعى كان بالمجد اجدرا
وبالهمة ترقى الى العلا
فمن كان أعلى همة كان اظهرا

ولـم يتـاخـر مـن اراد تقـدمـا
ولـم يتقـدم مـن اراد تـاخـرا »

وها هو العالم الاسلامي الفتى ، يريد أن يحتفل بأحمده كما احتفلت فرنسا بهيكوها ، والانكليز بشكسبيرها سابقا ، فشكرا جزيلا للمحتفل وهنيئا للمحتفل به • ان هذا العمل الخطير وهو الاعتراف بالجميل لأكابر الرجال ، يدل على دبيب الشعور بالواجب فى شرايين الشرقيين ، دبيب البرء فى السم ، والفجر فى تجاليد الظلام ، فكل أمة عظمت من يستحق التعظيم ، وازدرت بكل خائن لئيم نالت مبتغاها ، وعقد النصر بلواء مستقبل أيامها • اذا فلتبشر الأمة الاسلامية المنكوبة •

نعم ان شوقي أحيا الشعر العربي بعد موته — أو كان في طليعة من أحياه ، وفتح الباب الذي أغلقته السنون الطوال ولكنه مع ذلك كله لم يأت بشيء جديد لم يعرف من قبل ، أو سن طريقة ابتكرها من عنده وخاصة به دون غيره ، أو اخترع أسلوبا يلائم العصر الحاضر • وانما غاية ما هنالك جاء بهيكل الشعر القديم الموضوع فى قرون بلى عهدها ودرس رسمها فكساه حلة من جمال خياله ورقة أسلوبه وفخامة ألفاظه وقوة مادته ، وتوجه باتساع دائرة معارفه ومعلوماته ، وضرب به على أوتار قلوب ، كانت تتمنى بجدع الأنف ، أن يرسل الله لها من يسمعها نغمات شعر الفحول من القدماء ، ويحتذي حذوهم حتى تكون حياتهم متصلة بسلسلة محكمة العقد مع حياة أجدادهم تبعا لقاعدة « كل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى اتباع من خلف » فلما ظهر شوقي ، تلقته على ظمأ •

وبعبارة أوضح ان الشعر العربي ، كصحيفة من الابريز الخالص وقد تراكم عليها غبار الاهمال والنسيان مدة ليست بالقصيرة

فجاء شوقي ، فرفع عنها تلك الأدران ، فصارت تلمع تحت أشعة فكره المتقد ، كما كانت عليه من قبل فى عصورها الذهبية الأولى تتعجب لرؤيتها الأبصار ، ولم يخطر بباله فى غضون ذلك كله أن يذيبها بنار التبديل والتغيير والتفنن ويجعلها اناء جميلا ويصب فيه من بنات أفكاره خمرا حلالا ويقدمه للشاربين عذبا زلالا .

شوقي ، وما أدراك ما شوقي ، شاعر حكيم مجيد فى الطبقة الأولى من الفحول البائدة له غيرة كبيرة علـى الأدب القديم كغيرته على شرفه ، ومتمسك به الى حد التقليد . وعدم الالتفات الى جوانبه ، وأكثر شعره أقرب الى العهد القديم منه الى القرن العشرين الذي يحتاج الى شعر وطني قومي سياسي حماسي يجلب المنفعة ويدفع الضرر ويحرك همم الخاملين ويوقظ الراقدين الخامدين خصوصا والشرق الفتى فى فاتحة نهضته الجديدة فهو يخطو أول خطوة ويقطع أول مرحلة فى سبيل الحيـاة والرقي والمدنية العصرية الجميلة .

أجل اننا محتاجون أشد الاحتياج الى شعراء مفلقين وكتبة مفيدين وخطبـاء مفوهين مثـل « لامارتين » و « فولتير » و « ميرابو » لقطع بحـر الاستعمار الطامي ، والوصول الى شاطيء السعادة والحرية والاستقلال كما فعل أولائك الأفذاذ العـظام .

فان الرثاء والمديح ووصف القصور و « البالات » والمعارضة والافتخار بمن سبق من الأمم البائدة ان لم يكن عظـة تاريخيـة نحن فى غنى عنها مادام الشرق كله أو جله يئن تحت نير الغرب الثقيل ومادمنا ننظر اليه نظر العبد لسيده والضعيف للقـوي الجبـار .

أنا لا أقول ان شوقي ليس له بعض قصائد تحوم حـول السياسة والاجتماع خصوصا في هاته السنين الأخيرة بعد الحرب العالمية : كالتي بكى بها دمشق أخيرا تحت عنـوان (فلتـر الاسلام) أو أنه غير قادر على ذلك ــ معاذ الله ــ ولكن أريد أن أقول ان من يجود بمثل « صدى الحرب » و « كبار حوادث وادي النيل » و « النيل » بنفس واحد على نسق واحد لا فرق بين أول ووسط وآخر القصيدة لا يتخللها ملل ولا ضعف ولا قصور لقدير ــ وايم الله ــ وقدير على أن يدبج بيراعه السيال وفكره الجوال روايات شعرية دراما طبقية هائـلة . حماسية متقـدة . وطنية عالية . يتضاءل بجانبها شـعر « فولتير » و « لامارتين » وروايات « شكسبير » و « هيكو » . ولكن بشرط أن لا يتولع بغريب الألفاظ وصخورها حتى لا نلجأ الى مطارق القواميس والمعاجم في عصر يقال فيه « الوقت من ذهب ان لم تغتنمه ذهب » وان يكسر تلك القيود الثقيلة ويتجاوز تلك الحدود « الباستيلية » التي أوقفت الأدب عن السير زمنا غير قصير ويمضي في سبيله لا يلوي عما وراءه قائلا :

« وانـي وان كنت الاخيـر زمـانـه
لآت بمـا لم تستطعـه الأوائـل »

ولهذا فاننا نترقب ليل صباح خطة جديدة يسنها لنفسه بنفسه ويدعو الناس اليها ويباشر بثها بيده ــ مادام متمتعا بنعمـة الحياة ــ ولو يلاقي صدمات عنيفة وعراقيل جسيمة في سبيل نشرها والذود عن حياضها فان وراء ذلك سعادة أمة جمعاء ورفع لغة هي أم اللغات وأوسعها اذ :

« لابـد للشهـد من نحـل يمنعـه
لا يجتني النفع من لم يحمـل الضررا »

ثم يخالف كل المخالفة من سبقه من الشعراء والأدباء المحافظين حتى يعرج بالأدب العربي المنكوب الى أعلى عليين ويبلغ به سماء الكمال كما فعل الغربيون بأدبهم وكل شيء ينتمي اليهم ويدور حول محورهم •

لا أن يعيش فى عصر الكهرباء والخوارق ولا ندري أقديم هو أم جديد ؟ أمن أبناء العصر الحاضر أم من عصور قد سالت فى محيط اللانهاية ؟ فان هذا مما يجعلنا حيارى فى أمرنا لا نستطيع التمييز بين العصور المختلفة رغم التواريخ الموضوعـة والبون الشاسع بين أطراف الزمان شوقي من سكان مدينة القرن العشرين ومع ذلك فقد قال فيه أحد الأدباء المشهورين : « أما المبني فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ترى فيه من نسيج البحتري ومن صياغة أبي تمام ومن وثبات المتنبي ومن مفاجآت الشريف . ومن مسلسلات مهيار • وفى المجموع صفة عامة للنظم وهي أنه نظم شوقي » وقال فيه آخر :

« اننا لا نرى شاعرا غيرك جمع الله فيه شتات ما تفرق فى غيره ممن سلف من نوابغ الشعراء فكأن روحك العالية قد مازجها أرواح النابغة وحسان وجرير • والأخطل وبشار وأبي نواس • وابن الرومي • وأبى الطيب •• » لا مراء أن المذكورين هنا مع شاعرنا أهل قرية انقرضت ومضت الى سبيل ربها اذا فما الفائدة فى حشر الأحياء مع الأموات ؟ وكل يعمل على شاكلته • وعندي انها أوصاف ونعوت وتخليط لو أمعن النظر فيها قائلها لما فاه بها أصلا ولا سجلها بقلم يريد به اعلاء عصره على سائر العصور الغابرة فهي هجاء قبيح فى صورة اطراء ومديح • اذ لا ترينا شاعرا مستقلا برأيه وفكرته بارزا بشخصيته معروفـا بنفسه واختراعاته وانما غاية أمرها جعلته مرآة صافية ينعكس

عليها أعمال غيره وألصقته بالقدماء لصقا لا انفكاك بعده يشبه الحرف فانه لا يفيد معنى الا اذا ألحق بشيء آخر • وكأن الغاية القصوى التي نسعى اليها جعل الأقدمين قطبنا الوحيد — في الأدب خاصة — بحيث لا تدور حياتنا الا عليهم وان خالفناهم ولو فى جزء من الجزئيات خرجنا عن الجادة وعشنا مذبذبين لا نفقه قولا •

لا • لا • ما هكذا تؤكل الكتف ، ولا هكذا تساس الحياة ، ولكن لها شروط . وأي شروط !!!

* * *

نعم ان المتقدمين لهم فضـل جسيم علينا ومزية كبـرى لا يستهان بهما ولا يجوز أن نغمطهما أو نغض الطرف عنهما فيبعثنا التاريخ فى زمرة كافري النعم الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا • وفي الآخرة هم الأخسرون أعمالا ، كبني اسرائيل واليـونان قديما وحديثا • وتسطر علينا سحائب الويل والثبور فنضحى أضحوكة العالم المتمدن ويصح فينا قول الشاعر :

« تـربيت فى نعمـائـه فجحـدتهـا
ومن يجحـد النعمـا فلاشـك كافـر »

ولكن يجب علينا أن نعرف قبل كل شيء هاته النعمة الشاملة التي أثقلت كاهلنا والتي لا ينبغي أن تكفر حتى نقدرها حق قدرها فنكون قد عرفنا ما لنا وما علينا • وما هي يا ترى ؟ انها ملخصة فى هاته الكلمات الوجيزة •• « انهم بلغوا تلك الأمانة التي استودعت فى أيديهم الى أيدينا بغير خيانة ولا تقصير» لا أكثر ولا أقل والأمانة هي اللغة العربية لا غير •

أجل انهم قاموا بواجبهم وأدوا ما فرض عليهم من غير خيانة ولا تقصير جزاهم الله عنا وعن اللغة خيرا . وهل بعد ما رفعنا ذلك الحمل عنهم نمضي فى سبيلنا متكلين على أنفسنا الى النهاية أم نمكث فى مكاننا لا نبارحه محافظين على خطواتنــا خوفــا وجبنــا ؟

وان نحن تكاسلنا عن السير للأمام فمن يبــلغ هذا العبء الثقيل الى أولادنا وأحفادنا ؟ أيفعل ذلك الأجنبي عن اللغة ؟ أم ينزل الله ملائكة من السماء أو جنة من الأرض تقوم مقامنا ؟ كلا وألف كلا !

« ومــن لم يـــذد عن حوضه بسلاحـه
يهـدم ومن لا يظـــلم الناس يظـــلم »

فيا أيها الأدباء اجعلوا نصب أعينكم اعلاء الأدب العــربي وترقيته وافهموا واعتقدوا أن موقفنا مع أجدادنا الكرام كموقف الأم الحنون مع ولدها فانها اذا ربته وبلغ أشده واستوى فلابد له من القيام والسعي فى مناكب الأرض لا الركود فى حجرها والدوران حولها .

« فبمــكث المـــاء يبـــقى آسنــــا
وسرى البـــدر به البـــدر اكتمـــل »

اجهدوا أنفسكم فى درس لغتكم فى فهم أسرارها فى تدقيق معانيها فى اتقانها غاية الاتقان فاذا تم لكم المراد واستحوذتم على جانب وافر منها انبذوا عنكم كل صلة بينكم وبين ماضيها اجعلوها وسيلة الى نيل مآربكم لا غاية لا تتجاوزونها . غيروا . فننوا . وسعوا . أصلحوا . فانكم بذلك تكونون عصرا مستقلا

منيرا ذا ميزة على غيره مملوء بالأعمال الجليلة والاختراعات الخطيرة .

وهنا يقول قائل كيف نستطيع أن نميز بين اللغة والأدب وهما شيء واحد والتفريق بينها يستلزم موت أحدهما لامحالة . وهذا اعتراض والحق يقال له نصيب من الأهمية والاعتبار لا ينبغي لنا السكوت عنه فها نحن نجيبه بدليل على سبيل التمثيل ولا نظنه يتردد في قبوله ان كان من المنصفين :

اللغة شيء والأدب شيء آخر اللغة وعاء والأدب مائع يختلف لونه وطعمه باختلاف أذواق الشاربين فاختر أنت أيها « القائل » ما يحلو لك أيا قوت سيال ؟ أم ماء زلال ؟

وان شئت الوضوح أكثر فالفرق بينهما كالفرق بين ماء البحر وملوحته فان الماء شيء والملح شيء آخر وان ظهر لنا صعوبة انفكاكهما عن بعضهما فبعملية كميوية بسيطة نحصل على كل جزء منهما بعينه منفردا وان أردنا اتمام عملنا فلنزد لذلك الماء النقي نصيبا من السكر فنحرز على ماء حلو عوضا لنا عن ماء مالح أجاج . وهكذا اللغة والأدب .

وقد يقتنع بهذا الجواب . ولكنه لا يلبث أن يعيد الكرة مرة أخرى قائلا — ناقما علي كلامي على شوقي — ما الفائدة في تتبع خطوات رجل قد عرف ما له وما عليه ، ونقد أقواله والناس كلها — كما صرحت أنت بنفسك — قد جمعت على علو كعبه في الشعر والأدب مع كون بلادك في غاية الانحطاط فهذا ضرب من العبث وقتل للوقت النفيس .

فأقول له أما الداعي الى ذلك ففيه فوائد جمة منها :

1 ــ خدمة الأدب بقطع النظر عن البلاد السائد فيها .

2 ــ لم أقصد بنقدي التنقيص من سمعة الشاعر الكبير فقدره أعلى منزلة من أن تتناوله يد المتطاول .

3 ــ لغة القرآن تجمعنا رغم تنائينا .

4 ــ الشرق جسد واحد وان تعددت الأعضاء .

5 ــ للبحث فى حياة العظماء فائدة لا ينكرها الا متعنت .

6 ــ أبناء المغرب مشغوفون بالتشبث بأذيال أبناء المشرق من عهد بعيد رغم الحواجز التي بنتها يد الاستعمار .

7 ــ مصر مهد العربية الآن ومنبع العلوم والأدب الشرقي فنحن نحب أن نراها فى تقدم مستمر .

ــ فتح باب النقد الأدبي لبني جلدتي اذ هو سلطان مملكة الأدب والعلم .

9 ــ وان كان الكلام على شوقي واضرابه فان القصد منه انارة الطريق الذي يجب أن يسلكه أبناء الجزائر الأدباء لأن الشرق في غنى عن أقوالنا في هاته الأيام كما يظهر !!

10 ــ لا يوجد عندنا ــ أي فى شمال افريقيا ــ شاعر يقدر على خدمة أمة الضاد بأسرها حتى يستحق هذا الالتفات .

11 ــ أعرب عما يجيش فى صدري بغير تمويه ولا كذب وبغير زيادة ولا نقصان .

12 ــ لا يمنعني غضب الناس من ابداء خواطري الحرة .

13 ــ شغفي بالتجدد فى كل شيء .. فما بالك بالأدب الذي هو كل شيء !!

14 ـ عدم اعترافي بنهضة الشرق الحديثة مادامت لم تؤسس على مباديء عظيمة ، وحياة جديدة ، وأدب قومي •

15 ـ لكل زمان رجال ولكل رجال زمان •

16 ـ لا حياة ولا رقي مع التقليد والجمود •

17 ـ اتخاذي فى الأدب دينا خلاف الدين الذي دانت به القدماء قبلي الخ الخ •

هاته بعض خواطر رمت بي فى هذا الميدان الواسع •

* * *

الشعراء فى الشرق الآن ـ كثيرون يكاد لا يحصى عددهم ولكن المجيدين منهم قليلون وقليلون جدا حتى ان المشدد في الاختيار لا يرى لهم وجودا ولا يجد لأحدهم نفوذا •

ومن هم المجيدون يا ترى ؟ فهل الذين يسحرون العقول بتصوراتهم الكاذبة ويسمعون كلمة مرحى فى كل تثفة ينشئونها وتشنف أسماعهم بتصفيق حاد له دوي كدوي الرعد فى كل بيت ينشدونه • وتتحلى صدورهم بالألقاب الضخمة ، والنعوت الفخمة (التي لا يسعها الا قاموس الأمم المنحطة) لأنهم وصفوا فبهرجوا القول وزادوا ونقصوا فيه وفخموا الألفاظ تفخيما أو مدحوا فكذبوا ولكنهم عرفوا كيف يكذبون ويسوهون أو هجوا فأبكتوا الخصم لأنه ضعيف وغير قادر على رد صدمات الباطل الموجهة نحو عرضه النظيف • أو رثوا فأطنبوا وصدقوا فى بيت وانحرفوا عن الجادة فى سبعين أو هزلوا فأضحكوا الناس وأفسدوا أخلاقهم وقفلوا عليهم باب الجد فمقتوا أهله وأربابه •

أو حشوا بطون الوزن بمعان تافهة ولكنهم أكثروا وتحذلقوا حتى أصيب الشعر بالبطنة فأهلكوه أو كادوا يفعلون . الى غير ذلك من الزوائد التي تستغني عنها الأمم الراقية الضاربة فى كل فن بسهم صائب فما بالك بأمم عمشاء وقد قامت من سباتها الكهفي وبدأ بصيص ضئيل من نور المدنية يتسرب الى هيكلها المظلم وكل أعمالها الحيوية البسيطة ــ بغير مبالغة ــ لازالت فى عالم القوة والخيال لم تبرز بعد الى حيز الفعل والوجود .

أهل من الحكمة والسداد أن نعد هؤلاء الناعقين شعــراء يستحقون المدح والاعتبار على شاعريتهم المعكوسة فنغر بهــم ونغر بأنفسنا معهم فنهلك جميعا .

لالا !! نحن لا نغطي الشمس بالغربال فالشعور بالنقــص أول مرتبة فى الكمال .

الشعراء الحقيقيون الناظرون الى بلادهم ومستقبلهم نــظر الشحيح الى فلسه والجبان الى حياته . لا نظر الصبي الى لعبته وملهاته والكريم الى نفسه وماله هم الذين يهيئون تربة صالحة للخلف من بعدهم ويخترعون أشياء لــم تكــن فى الحسبــان ولم يحلم بها الشعب من قبل ويعلمون الأمة كيف وبما والى أين تسير وينفخون فيها روح الاستقلال والحياة الجديدة الحقة ويرمون الاستبداد بالسنة حداد رغم الاضطهاد والقوة والجبروت ولا ينتصرون لحزب دون آخر ما لم يكن رجعيا فهم خلقوا لأن يكونوا أدوات التربية والاصلاح وآباء الجميع .

لا يسمى الشاعر شاعرا عندي الا اذا خاطب الناس باللغة التي يفهمونها بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على

الزهرة الباسمة • لا أن يكلمونا في القرن العشرين بلغة امريء القيس وطرفة والمهلهل الجاهليين الغابرين •

يجب على الشعراء الكبار أن يتنـازلوا الى مخاطبة الطبقة الوسطى والسفلى من الأمة أي العامة التي هي هيكل الشعوب ومرجعها الوحيد عند المدلهمات ويقتدوا ــ بقطع النظر عــن اختلاف الأديان ــ بشعراء فرنسا وأدبائها فى ابان انفجار بركان الثورة الكبرى ــ (تلك الثورة التي ثلث عرش الاستبداد وهزمت جيوش الظلم والجبروت فأصبحت فرنسا بفضلها حرة تسرح بثوبها القشيب أمام الأمم جمعاء حاملة بيدها لواء حقوق الرجل) ــ وما فعلوا وما قاموا به من أعمال جليلة تذكر بكل اكبـار •

الشعراء روح الشعوب فاذا نصحوا لها سارت وتقدمت واذا خانوها فالسقوط والاضمحلال حظها • وأمـا السبيل الذي يسلكه شعراؤنا وأدباؤنا اليوم المملـوء بالتحذلق والتمشدق بالألفاظ الضخمة الرنانة والسعي وراء ارضاء الخواص فغايته الويل والبوار •

فكأنهم نسوا ــ عفا الله عنهم ــ أن الطبقة العلياء من الأمة التي أوجدتهم وهذبتهم ورفعتهم الى مستوى ما هم عليه حتى قيل فيهم انهم « شعراء » انها بعدما أنارت لهم الطريق غير محتاجة اليهم وأملها الوحيد أن يأخذوا بيد غيرهم ممن هو دونهم رتبة فيعم النهوض والاحساس جميع طبقات الشعب • لا أن يعلموا من علمهم ويرجعوا المياه الى منابعها •

الحاصل أن الشعر الذي لا يحرك نفوس العامة ولا يذكرها فى واجبها المقدس ووطنها المفدى فهو خيانة كبرى وخنجر مسمم

فى قلب المجتمع الشريف . تصور بالله عليك أي درجة يبلغها الشرق المهان لو أن الشعراء تنفخ ببوقها الاسرافيلي فى روع كل فرد من أفراد عائلته الكبرى : « ان البلاد تحتضر فهي لامحالة هالكة ان لم يتداركها أبناؤها وكل شخص مهما صغر مكانه مسؤول أمام الله والملائكة والجن والناس أجمعين ان لم يكن لها من المتداركين » .

أواه على شعرائنا ما أضلهم عن طريق النهوض وما أعماهم عن الحقيقة الساطعة !!

فيا أيها الأدباء الأحرار انبذوا عنكم التكلف والتنطع فى اللغة وأفرغوا المعنى الجميل فى اللفظ الجميل واخضعوا لصوت الضمير والواجب وصفوا أنفسكم من الانتقام قبل الانتقاد ولا تقيدوا كتاباتكم بطريقة أحد مهما كان شأنه وقدره فى الأدب ومهما كان بيانه الساحر . ولكن أتمنى أن تدور رحى أقلامكم حول محور واحد وتتسابق خيل أفكاركم نحو غاية واحدة وهي : « سعادة الشرق بأي طريق كان !! » .

الشرق والشرقيون

فى شمال افريقيا الأن نهضة علمية لا بأس بها تشرئب اليها الأعناق من كل مكان ؛ ولكن من سوء الحظ أنها تسير ببطء محسوس ، مع شيء من الفتور ، كدنا نيأس من نتيجتها ؛ لو لا الأمل الصادق والواجب المفروض •

* * *

فى الشرق أمم تصبو الى نيل سماء الغرب ، ولكنها لم تزل تجهل الطريق الموصل والأسباب الأولية اللازمة •

* * *

لست من المتشائمين على الشرق أبدا ، ولكني أقول بملء فى ، ما دامت أقواله أقوي وأضخم من أفعاله ؛ فحاضره أحسن من مستقبله •

* * *

محال أن ينال الشرقي المجد والعظمة بغير الطريق التي سارت فيه اسلافه ، وبغير الآلات المعنوية التي استعملتها فى حفر أساس بنياها الضخم •

* * *

وأما تشبثه باذيال الغربي تيها وتقليدا ، فلا ينتج منه الا المسخ والاندماج •

***

اذا تقهقر مسلم أمام خصمه ، فسببه : « فيه قولان » (1)

***

ان سقوط المسلمين قد يتدارك بشيء واحد ، هو ان يكونوا مسلمين بالمعنى التام •

***

المسلمون يرثون علو الهمة عن أجدادهم ، ولذا ان عثروا لا يسقطون •

***

وما سقط هذا الشرق التعس الا بكثرة مذاهبه ، وانفكاك أواصر أبنائه •

***

المسلمون في حاجة الى غسل ما لصق بهم من أدران الخرافات الباطلة تحت عنوان الدين ، وان تبرأت بها الشريعة ، وهربت منها الملة السمحاء فرار السليم من الأجرب •

***

ما دام الشرق لا يعتني بدرس حياة عظمائه ، اعتناء خاصا هيهات أن يصير عظيما •

***

منع الشرق من النهوض اهماله أمرين عظيمين بهما ترفع ألوية الأمم ويعز شأنها ، هما :

« اللغة والدين »

أما اللغة فالعربية وأما الدين فما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه .

* * *

ان للدهر قوارع جمة ينبه بها الشرق الغافل ؛ ولكن كل ذلك لم يجد نفعا لأن نومه عميق ونفسه ضعيفة .

* * *

ان سيرة الشرق الحاضرة مصيرها انفكاك ممالكها بعضها عن بعض في أقرب وقت ؛ ان دام في حالته الحاضرة ؛ لأن الاسلام الذي هو مصدر كل وحدة ورابطة ، صار يتضاءل كل يوم ؛ واذا ضعف السبب ضعف المسبب .

* * *

ان كلمة « الشرق » لا تطلقها بعض الشعوب الشرقية على أخواتها الا في الشدة ؛ وأما في الرخاء فترى نفسها هي الشرق، والشرق هي .

* * *

الشرق الآن أجوف كالطبل ؛ لا يفهم من نغماته اذا قرع أكثر من كون أبنائه مذبذبين متخاذلين لا يصلحون لمهم .

الوطن والوطنية

الوطنية كتاب ، صحائفه القلوب ، ومداده الاخلاص .

* * *

قد يظن البعض أن الوطنية الصادقة شيء خلاف الدم الجاري في العروق ، وأن التمنطق بها كاف لحماية الشرف والحقوق .

وهذا الظن مناف للصواب والحقيقة .

* * *

كل الناس تدعي الوطنية ، وكلهم ينتمون اليها ، ويبكون في الرخاء عليها ، ويتغالون في عشقها ، والافتتان بحبها ولكن :

« اذا اشتبكت دموع في خدود

تبين من بكى ممن تباكى »

* * *

من أحرقت الوطنية لبه بجمرة الحماس والغيرة ، بقي أبد الدهر مفتوح العينين ، حي الوجدان ، نقي الضمير ، حر النفس ، مطمئن البال .

* * *

كل من يتألم لرؤية الفساد والعسف في غير وطنه ، يصلح بأن يكون وطنيا لبلاده وأمته •

* * *

كل ما ألقاه في سبيل احياء وطني وبلوغ مقصدي لا يثبط همتي ، لأني أتيقن أن لا خطب أعظم من الموت ، والموت في سبيل المقدس أحلى من الشهد •

* * *

جدير بالمحبة والاحترام ، من سعى في المصلحة العامة ، وبذل نفسه ونفيسه في احياء شعبه وترقية أمته •

* * *

الوطنية أن تنصر الفضيلة ، وتكشف اللثام عن وجه الحقيقة ، وتصبر كل الصبر ، وتشكر قومك حين يهدون لك وسام الجنون ولقب الطيش •

* * *

من الجنون ، بل من المحال محاولة اطفاء جذوة الوطنية الملتهبة في أمة ، دب في شرايينها روح التضامن والحياة والنضرة ، وشعرت بما لها وما عليها ، اذ الحياة معنى كامن في النفوس ، وما استمد قوته من الروح ، فمن العبث القضاء عليه ، ما دام ذلك الوازع موجودا •

* * *

الوطنية الحقة سعادة يتمتع بها الرجل الغيور بين قوم ضلت أفكارهم في صحراء الخرافات الفارغة والجمود المميت ، ولو

كان يلقي في سبيل صيانتها ، والذود عن حوضها ما لا يتحمله غيره .

* * *

الغلو في الوطنية محمود . ولكن بشرط أن نحترم أفكار غيرنا ، وأن نقبل الحق من حيث أتى ، ومن أي فم خرج .

* * *

غايتنا الوحيدة التي ترمي اليها نهضتنا العلمية الاصلاحية . هي احياء ما اندس من مجد آبائنا . والاقتداء بعظمائنا ، وتلقين العالم بأننا أمة اسلامية . متمسكة بدينها وعوائدها وقوميتها ووطنها ، تمسكا متينا لا تبغي بهن بديلا .

* * *

قد يظن البعض أن خدمة الأمة المعذبة . والذب عن شرفها المداس شيء خلاف الواجب ، أو أنه فرض كفاية .

وهذا الظن ليس من الوطنية فى شيء .

* * *

الوطن كالهواء . والنور . والماء ، كلها ضرورية للانسان . وآلات حياته . فاذا فقدت احداها . لم تقم مقامها الأخرى .

* * *

الغيرة القومية درع تدافع به الأمة عن شرفها ، وترد به كل ما يطرأ من المطامع والدسائس .

الجزائر الفتاة

الجزائر في حاجة الى زعيم وطني ، يدير مصالحها ، والا فأعمالها ومصالحها ومساعيها ومطالبها ، لا تكون الا ضربا من العبث . وتضييعا للوقت .

* * *

الجزائر قامت تنادي أبناءها . وتلتمس منهم المعـونة على الصعود الى سماء الرقي والحياة ، ولكنهم ــ ويا للأسف ــ لا زالوا لاهين بالسفاسف من الأمور ، مشتغلين بما لا يعني ولا يجدي نفعا ، فهم لا يسيرون شبرا من الأرض ، الا ويعدونه تقدما باهرا معتبرا ، يستحق الالتفات .

* * *

ان الذي منع الجزائر من النهوض الحقيقي الى اليوم ، هو عدم اعتنائها بلغة دينها وأجدادها ، لغة القرآن ، لغة العرب .

* * *

اذا صح أن الأمم لا تتكون الا من طينة تاريخها الغابر ، وأن الأمة التي لا تاريخ لها لا تنهض الا باندماجها في غيرها ، فان للجزائر العزيزة تاريخا ماجدا . وماضيا خطيرا ، يذكر بكـل جلال وتعظيم .

* * *

يجب أن نجعل للجزائر صبغة قومية ، خاصة بها لتكون ممتازة عن غيرها في ميدان المسابقة والزحام •

* * *

ان الذي قضى على مجد الجزائر الزاهر ، وخدش سمعتها في الخارج ، هو تخاذل أبنائها ، وتقهقرهم بآرائهم الى عصور مظلمة ، ساد فيها التعصب والجهل •

* * *

الجزائر لا بد أن تنهض نهضة صادقة ، كغيرها من الأمم الشرقية الجديدة ؛ ولكن تتساءل هل بدأت تسير في الطريق الموصل ، أم لا زالت تمهده ؟

ذلك موضع اشكال • وهمة أبنائها البررة لا يعسر عليهم حل ذلك ، وتحقيق الأمل •

* * *

الجزائريون أوسع الناس عقلا ، وأذكاهم قلبا ، وأقلهم علما، لأنهم يقتنعون بالقليل •

* * *

الجزائر ، تربة صالحة للنبوغ والحرية لغيرة أبنائها وحراراتهم النادرة ؛ فلو أنصف الدهر ، ورحل الجهل لرأى العالم منهم عجائب تذهل الألباب •

* * *

الجزائر أمة اسلامية قبل كل شيء ، يجب أن تحتفظ على دينها واسلامها قبل كل شيء •

* * *

الجزائر في خطر عظيم من داء التمرنج القتال ، فلتكن على يقظة وحذر .

* * *

من الممكن أن تنصف الجزائر وتعطى جميع الحقوق ، لما قامت بجميع الواجبات ، وليس من الممكن أن تكون أمة حية معتبرة في جغرافية العالم ، اذا لم تجعل الثقة في نفسها ، وتتكل على داخليتها .

* * *

يجب على الجزائري النبيه أن لا يغتر بالظواهر الخلابة ، وأن لا ينتسب لحزب سياسي ، ويهجر آخر ، فالأحسن أن يعمل في دائرة الاعتدال والرزانة اذا طلب ، فتؤيده جميع الأحـزاب بالرغم عنها .

* * *

لن تحشر الجزائر من رمسها ، وتاريخها مدفون .

* * *

لا تتكون وحدة قومية جزائرية بغير جرائد وطنية ، وكتب قيمة تدعو الناس الى فكرة واحدة ، وغاية مشتركة .

المحتوى

من شعره :

من نثره :

للمــؤلــف

في الابحاث والدراسات :

1 — (شعراء من الجزائر) معهد البحوث والدراســـــات العربية القاهرة 1969

2 — (صفحات من الجزائر) ش.و.ن.ت. الجزائر 1974

3 — (الشعر الجزائري الحديث) ش.و.ن.ت. الجزائر 1975
طبعة ثانية م.و.ك الجزائر 1984

4 — (الجزائر والاصالة الثورية) ش.و.ن.ت . الجزائر 1978

5 — (شعر المقاومة الجزائرية) ش.و.ن.ت . الجزائر 1982

6 — (في ذكرى الأمير عبد القادر الجــزائري) م.و.ك الجزائر 1984

7 — (في رحاب المغرب العربي) دار الغرب الاســلامي بيروت 1985

في الشعر :

8 — (نوفمبر) وزارة المعارف . الدوحة قطـر 1961

9 — (اطلس المعجزات) ش.و.ن.ت الجزائر 1967
طبعة ثانية ش.و.ن.ت الجزائر 1982

10 — (انت ليلاي) ش.و.ن.ت. الجزائر 1974

في سلسلة الادب الجزائري الحديث :

11 ـ (المدخل الى الادب الجزائري الحديث) ش.و.ن.ت
الجزائر 1983

12 ـ (عمر بن قدور الجزائري) م.ن.و.ك الجزائر 1984

13 ـ (حمود رمضان) م.و.ك الجزائر 1985

المؤلــف

د . صالح بن صالح الخرفي

ـ من مواليد (القرارة) ولاية غارداية سنة (1932) .

ـ درس : (معهد الحياة) بالجزائر و (الزيتونة والخلدونيـــة) بتونس و (كلية الآداب) بجامعة القاهرة .

ـ مسؤول العلاقات الثقافية مع البلاد العربية فى اول وزارة للتربية بعد الاستقلال (1962) .

ـ استاذ الأدب الجزائري الحديث بجامعة الجزائر (1964 ـ 1976) .

ـ ماجستير عن (شعر المقاومة الجزائرية) جامعة القاهرة (1966)

ـ دكتوراه بمرتبة الشرف الاولى فى (الشعر الجزائري الحديث) جامعة القاهرة (1970) .

ـ رئيس تحرير مجلة (الثقافة) التي صدرت عن وزارة الاعلام والثقافة (1971 ـ 1976) .

ـ عضو لجنة اصلاح التعليم الجامعي بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي (1971)

ـ رئيس دائرة اللغة والثقافة العربية بجامعة الجزائر (1971 ـ 1976) .

ـ منح جائزة الشعر فى الذكرى العاشرة للاستقلال (1972) .

ـ عضو مؤسس لاتحاد الكتاب الجزائريين .

يتولى منذ سنة 1976 مسؤولية :

ـ مدير ادارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

ـ رئيس تحرير (المجلة العربية للثقافة) التي تصدر عن المنظمة .

ـ عضو اللجنة الوطنية للتعريب بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي .

المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحـدة الطبـع المتعددة
ورشة أحمد زبـانة
الجزائر 1985